الركن الأول من أركان عقيدة المؤمن :

الإيمان بالله رب العالمين

إن المسلك السهل ـ والسليم فى آن واحد ـ للبحث عن الإيمان باللّه تعالى أى عن وجوده تعالى، والتصديق به عز وجل ربًا وإلهاً، هو مسلك احترام العقل البشرى، وقبول أحكامه التى يصدرها على الأشياء نفياً أو إثباتاً، وجوداً أو عدماً، ومن ذلك: حكمه الواضح الصريح بوجود البارى عز وجل، وبوجوب معرفته وطاعته، والتقرب إليه، والأخذ بهدايته، والسير فى طريق أوليائه من صالحى عباده.

ولنستمع إليه ـ العقل ـ وهو يُورد أدلته، ويقدم شواهده، ويُظهر بيانه، ليصدر بعد ذلك حكمه النهائى فى قضية الإيمان باللّه تعالى، وأسمائه وصفاته، ووجوب طاعته وعبادته، والأخذ بهداية وحيه، واتباع شرعه: إنه يقول بمنطقه السليم: إن السماء التى تظلنا، ونشاهدها بحواسنا، ونراها بأم أعيننا، ولا نستطيع عدها لكثرتها، ولا حدَّها لبعدها وعلوها. هذه السماء يقول ـ العقل ـ: إنها موجودة فعلاً، ولا سبيل إلى إنكارها بحال من الأحوال، فمن أوجدها ؟؟

ويقول: هذه الأرض التى نعيش عليها وهى موجودة فعلاً، ولا معنى لإنكارها أبداً، فمن أوجدها ؟؟

ويقول: هذه الكائنات الحية على تباينها، واختلاف أنواعها، منْ أرقاها وهو الإنسان، إلى أدناها: كالنحلة، والنملة، والعنكبوت، وهى موجودة فعلاً، لها غرائزها، ومداركها الخاصة، وأنظمة حياتها، وطرق معاشها، وحفظ أنواعها إلى آجالها، ولا مجال لإنكار ذلك بحال، فمن أوجدها؟ ومن وهبها حياتها؟ ومن خلق لهَا أرزاقها، وهداها إلى طلبهَا، والحصول عليها، والانتفاع بها فى حفظ نوعها واستمرار وجودها ؟ إن العقل يقول: ابحثوا عن الموجد، عن الخالق، عن الرزاق، عن المدبر، عن المنظم، عن المسخر، عن خالق الكون، عن واهب الحياة لكل ذى حياة، وعن سالب الحياة من كل من وُهبت له، ومتع بها مدة حياته الموقوتة، وفترة عمره المحدود.

ابحثوا، واطلبوا، واستقصوا فى البحث والطلب، واعلموا أنه لا يوجد شىء موجود أوْجَدَ نفسَه بنفسه، ولا كائن كوَّنَ نفسَه فى هذه العوالم الموجودة، والكائنات المشاهدة المحسوسة أبداً.

ابحثوا عن خالق، رازق، مدبر، ذى إرادة، وحكمة، وعلم، وقدرة، يخلق، ويرزق، بعلم وقدرة، ويبدع، وينظم، ويدبر بإرادة وحكمة. ابحثوا عنه، ولا تستهينوا بالعقل أو تَزْدَرُوه، وأنتم تعلمون أن أحدكم إذا فقده أصبح مجنوناً، مختل التفكير والتقدير، مسلوب الإرادة والتدبير، يَهْرُفُ بما لا يعرف، ويرمى إلى ما لا يهدف، فتقولوا: إن الموجودات أوجدت نفسَها بنفسها، أو

تقولوا: إنها وُجدت بدون مُوجد، فإن ذلك مُزْرٍ بكم، مخل بكرامتكم، خارج بكم عن دائرة العقلاء من بنى الناس أجمعين، لأن العقول كلها مطبقة مجمعة على أن الشىء لا يُوجد نفسَه، كما أنه لا يوجد بغير موجد ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور:35). إنكم تقرون أن جميع الكائنات التى تخضع للحس والمشاهدة مادة، والمادة ميتة قطعاً، والميتُ لا يخلق الحىَّ، وكيف يَهَبُ الحياةَ مَنْ هو ميتٌ ؟ !

وزيادة فى التثبيت من هذه الحقيقة ـ وهى أن الشىء يستحيل أن يخلق نفسه، وأن كل موجود لا بُدَّ له من موجد ـ نقول: إنه لما لم نجد للكائنات موجداً لها من نفسها اضطررنا إلى الإيمان بوجود إله قوى، قادر، ذى إرادة، وعلم وحكمة، وهو اللّه الذى أخبرنا بواسطة كتبه التى أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم أنه رب كل شىء، وخالق كل شىء، وأنه هو بديع السموات والأرض، ومدبر الأمر فيهما، له وحده الخلقُ والأمر، وهو على كل شىء قدير. وزيادة فى التثبيت والتقرير، نهبط إلى عالمنا الأرضى هذا ،وننظر إلى الأشياء الموجودة فيه وهى لا تُعَدُّ كثرةً، هل نجد بينها مَنْ يخلق نفسه بنفسه، أو يخلق غيره.

فها هى ذى النباتات على كثرتها، واختلاف أجناسها، وتنوُّع أفرادها لا تخرج عن سُنة وجودها التى سُنَّت لها، واطردت فيها، وهى وجود تربة صالحة، وماء كاف لسقيها، ومناخ طيب صالح للحياة والنماء فيه مع تقدم وجود البذرة الحية بالقوة المكفورة ـ المغطاة ـ بالتربة الملائمة لإنباتها، إنَّ النباتات بهذا هى مفتقرة إلى عناصر شتى، وهى البذرة، والتربة، والهواء، والماء، لم تكن لتوجدها النباتات لنفسها، فكيف يصح إذاً أن يقال: إنها خلقت نفسها بنفسها، اللهم إنه لا يقول بهذا إلا مجنون أو مغرور يجاحد ويعاند !

وها هى ذى الحيوانات على اختلافها، وكثرة أفرادها، من أرقاها وجوداً وحياة، إلى أهبطها حياةً ووجوداً، لا يوجد بينها حيوان واحد يخلق نفسه بنفسه. وإنما جميعها وكلُّ واحد منها تبعاً لسُنة الخلق فيه، والمطردة فى كل أفراده، وهى بالنسبة إلى الإنسان الذى هو أرقاها وأفضلها، وجود نطفة من أبوين ذكر وأنثى، واستقرارها فى الرحم المعدة لها، وتطور تلك النطفة من حال إلى حال إلى أن يتم الخلق، ويخرج الإنسان طفلاً صغيراً، ثم ينمو حسب النمو فيه إلى أن يبلغ أشده، فيكتهل ويهرم ويموت، وهو فى كل ذلك الخلقِ والتطور والنماء والكمال والنقصان والموت والفناء: لا يملك من أمره شيئاً.

فهل يُعقل أن يقال: إن الإنسان خلق نفسه بنفسه. وإذا بطل هذا فى الإنسان، فهل يصح فيما دونه من سائر الحيوان ؟ اللهم لا، وإذاً فهل يعقل أن يتم الخلق والإيجاد بدون ما خالقٍ ولا مُوجد؟

اللهم لا، حتى ولو كان المخلوق نحلة، أو الموجود فنجان قهوة، وهل يوجد عاقل فى دنيا الناس يرى موجوداً عظيماً كعمارة ضخمة، أو دون ذلك كرغيف خبز، ثم ينكر أن يكون له موجد أوجده؟ ويعتذر عن إنكاره وجحوده بأنه لم يَرَ موجدَه ولم يشاهده، اللهم لا. وإذاً، فكيف يعقل الكَفر بوجود اللّه خالق كل شىء لمجرد أنه لم يُرَ فقط؟ مع أن هناك نفس الإنسان التى بين جنبيه، قد آمن كل إنسان بوجودها ولم يرها إنسان قط، وهناك العقل البشرى لم ينكره أو يكفر به أحدٌ قط مع أنه لم يُرَ قط. وآمن بكل من النفس والعقل لوجود آثارهما الدالة عليهما. وكم من موجودات آمن الناس بموجدها ولم يروها قط. وذلك لدلالة وجودها على مُوجدها ؛ إذ العقل يحيل وجود أى شىء بدون موجد، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور:35).

والأعجب من هذا، أن الملاحدة بمجرد معرفتهم لسنن اللّه تعالى فى خلق بعض المخلوقات، وإيجاد بعض الموجودات طاروا فرحاً بذلك. واتخذوا منه دليلاً على عدم وجود الخالق سبحانه وتعالى. فقالوا: قد عرفنا كيف تنشأ السحب وتتكون الأمطار. وكيف يخرج الكتكوت «الفروج» من البيضة. فلا حاجة إذاً إلى الإيمان بوجود اللّه تعالى. وهو سخف عجيب. وحمق مُتَنَاه، وإلا فمتى كانت معرفة سنن اللّه تعالى فى خلق الأشياء وإيجادها دليلاً على عدم وجود اللّه؟ بل هى بالعكس دالة على وجود اللّه، وعلمه، وقدرته لو كانوا يعقلون !!.

إن مثلهم فى هذا الكفران والنكران، كمثل من قُدِّم له طبق فيه تمر حلو، فأكل حتى شبع. ثم سأل عن صانعه. فقيل له: إنه اللّه. فآمن به لوجود أثر وجوده وهو صنعه. ثم قدر له أن زار بستان النخل ووقف على كيفية غرس النخل وتربيته، وتأبير طلعه. فعاد فأنكر أن يكون التمر من صنع اللّه تعالى ؛ لأنه رأى كيف ينشأ النخل. وكيف تتم تربيته وإصلاحه حتى يثمر تمراً حلواً. وتناسى أن الذى صنع التمر، هو اللّه الذى أوجد البذرة، والتراب، والماء، والهواء، وأوجد الفلاح، أوجد له قدرة، ووهبه علماً حتى فلح الأرض وغرس البذرة، وسقاها، ورباها، وأبّرها لما أطلعت. ورعاها حتى أصبحت تمراً حلواً.

فهذا مثلُ منكرى الخالق عز وجل من الملاحدة الذين أنكروا وجود اللّه لمجرد معرفتهم لبعض ظواهر الكون، وإذا قيل لهم: لقد عرفتم قوانين الكون، وسننه، فمن وضع تلك القوانين، ومن سَنَّ تلك السنن فى الكون، والتى بواسطتها يتم خلق الأشياء وإيجادها؟؟ قالوا فراراً من الإيمان باللّه عز وجل حتى لا يعبدوه ـ قالوا: الطبيعة ؛ ولو أن الطبيعة نطقت، وقالت لَهم: اعبدونى، لكفروا بها، وأنكروها، كما كفروا باللّه، وأنكروا وجوده، وهو يناديهم فى كتابه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:21).

ومما يدل على أنَّ الملاحدة ما كفروا باللّه إلا فراراً من عبادته، والتزام شرائعه، أن الإيمان باللّه تعالى خالقاً للكون، مدبراً له: ليس بأصعب ولا أبعد فى الاستحالة من الإيمان بالطبيعة الميتة، العمياء، الصماء خالقاً مبدعاً، كما قال أحد علماء الكون: لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه لكان يتمتع بأوصاف الخالق، وفى هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وينتهى الأمر إلى التسليم بوجود إله، ولكنه إله عجيب ؛ لأنه غيبى ومادى فى آن واحد. ثم قال: «إننى أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه، ومدبره، ومديره، بدلاً من أن أتبنى مثل تلك الخزعبلات» يعنى قول الملاحدة: إن الطبيعة، والضرورة، والصدفة هى التى أوجدت الكون، ووهبت الحياة، ووضعت السنن والقوانين ؛ وهو أمر عجب، وجهل مركب، وفساد عقول لا حد له.

ولنناقش الآن كلمات: الطبيعة، والضرورة، والصدفة التى ينسب إليها الملاحدة خَلْقَ العالم وإدارته وتدبيره. فنقول:

ما هى الطبيعة ؟

إن الطبيعة هى: المادة، وعناصر تكوينها من البرودة، والحرارة، والرطوبة، واليبوسة، والمواد المركبة منها، وهى الذرات المكونة من النوى المشتملة كل نواة منه على بروتون، ونيترون، وإلكترون.

هل هذه العناصر من النوى، والذرة، والخصائص المشتملة عليها المادة، أوجدت نفسها، فكونت ما يُسَمى بالطبيعة ؟ اللهم، لا ؛ إذ هو تحيله العقول، ولا تقبله أبداً. إن معنى هذا الهراء: أن الطبيعة أوجدت نفسها أولاً، ثم أوجدت غيرها من الموجودات ! إن المادة المركبة من عناصرها، والمودع فيها خواصها، وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها، ويودع فيها خواصها، وحينئذ فهى حادثة مخلوقة، فكيف يصح أن تكون إلهاً، خالقاً، يُنْسَب إليها الخلق، والتكوين والإبداع والتنظيم ؟

سبحانك اللهم، هذا ضلال فى العقول مبين.

إن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة ؛ إذ كلُّ مركب حادثٌ، وكلُّ حادث مفتقرٌ إلى محدث أحدثه قطعاً. كما قضى بذلك قانون العلِّيَّة المسلم به من جميع العقلاء.

إن وجود مادة، وحركة لها ـ وهى طاقتها ـ معلول، فلابد له إذا من علة اقتضت وجوده، وهو الإله الأزلى، الذى ليس بمادة ؛ إذ لو كان غير أزلى لكان مُحْدَثاً، ولو كان محدثاً لكان مادة، والمادة ميتة فكيف تخلق الأحياء ؟ ومن بديهات العقول أن فاقد الشىء لا يعطيه، وسواء كان نفيساً كالحياة، أو خسيساً كالموت والعدم. وبما يقضى على هذه الفرية الدجلية، التلصصية، التى اغتر بها أهل الغفلة عن ذكر اللّه تعالى، وتلاوة كتابه حتى أصبحت شبهة عقلية تضطرب

لها قلوبهم، وهى نسبة الخلق والإيجاد إلى المادة ـ أن يقال: إن الإبداع الموجود فى الكون كله علويه وسفليه، من الذرة إلى المجرة ؛ شاهدُ حقٍّ، وقاضى عدل باستحالة صدوره عن الطبيعة العمياء الميتة، أو عن الصدفة البعيدة عن كل حكمة، الخالية من كل إرادة، وعلم وتدبير.

ما هى الصدفة ؟

إنهم يعنون بالصدفة، أن الأشياء تم تكوينها على ما هى عليه من الجمال، والإبداع والنظام بطريق الموافقة لا بطريق القصد، والإرادة، والتدبير، بحيث لم يكن هناك قصد، ولا إرادة، ولا تدبير. وهى قضية، القولُ بها مخجلٌ، والنظرُ فيها لهوٌ وباطل.

وخلاصة هذه الأضحوكة والأعجوبة معاً: أنه بمرور الزمن الطويل الذى لا يتكلمون فيه إلا بالأرقام الهائلة كمئات الملايين تضليلاً وتدجيلاً، فيقولون مثلاً: عناصر الذرة تلاءمت وتناسبت بمرور ملايين السنين، والحياة وجدت خلية على الأرض، وبمرور ملايين السنين كانت الحياة على هذه الصورة من الجمال والكمال، وليس وراء ذلك إرادة هادفة، ولا تدبير، وإنما هى صدف وموافقات تم بواسطتها الكون والحياة، وقد أقاموا نظريتهم هذه على أساس من الافتراضات الوهمية، والقياسات الفاسدة التى لا يقبلون مثلَها لو قالها غيرُهم ؛ ولأنهم يدعون أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس المشاهد غير أنهم هنا خرجوا عن مبدئهم، وقالوا بالفرض والقياس تأييداً لترهاتهم، وأباطيلهم، وضلال عقولهم فى القول بالصدفة، وأنها علة الحياة، وأداة التكوين والإيجاد، كل ذلك هروباً من الإيمان باللّه عز وجل، الذى لم ينكروه، ويكفروا به إلا تخلصاً من الطاعة والنظام.

هذا، وقد ذكر العلماء لإبطال فرية الصدفة فى الخلق والإبداع أمثلة عديدة قضوا بها على هذه النظرية الميتة العمياء، القائمة على أساس الوهم، والخيال اللاشعورى، منها قولهم: إن مثل من يقول: الإبداع الموجود وُجدَ بطريق الصدفة لا غير، وليس ثَمَّ من إرادة لأحد، وإنما هى الصدفة والتلقائية فقط كمثَل من يقول: إن داراً للطباعة بها صندوق من الحروف يكفى لتصفيف كتاب، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف، فتساقطت تلك الحروف على بعضها، فكونت بالصدفة كتاباً ذا أبواب وفصول علمية مختلفة، وفى مواضع شتى، كمثل من يقول: إن رجلاً أعمى غرزت له إبرة فى لوحة، وأعطى ألف إبرة، وقيل له: ارم هذه الإبرة واحدة بعد الثانية لتدخل الأولى فى ثقب الإبرة المغروزة فى اللوحة، وتدخل الثانية فى عين الإبرة الأولى، والثالثة فى عين الثانية، وهكذا بطريق الصدفة حتى تدخل كل الإبر فى بعضها بعضاً، والرجل

-كما علمنا- أعمى لا يبصر شيئاً، فهل عاقل يصدق بصحة هاتين العمليتين ؟ اللهم لا ؛ لأن هذا من قبيل المستحيل الذى لا تقبله العقول ولا تقره، وإذاً فكيف يصدق أن الكون كله بما فيه من إبداع وتنظيم فى كل ذرة من ذراته، تم بطريق الصدفة والتلقائية.

اللهم إن مخلوقاً يصدق بهذه الترهات لمجنونٌ قطعاً لا تصح نسبته إلى العقلاء، ولا يذكر فى عدادهم أبداً. وكالصدفة عند الملاحدة الضرورةُ.

ما هى الضرورة ؟

إن الضرورة معناها: أن التنوُّعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة، فحاجة الزرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هى التى جعلت عنقها يطول، وحاجة السمكة الملحة إلى السبح فى الماء هى التى أوجدت زعانفها التى تساعدها على السباحة، إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب، والمنطق السقيم. وما قالوا بهذه التَّرهات والأباطيل إلا إمعاناً فى الهروب من مواجهة الحقيقة، وهى الإيمان باللّه الصانع الحكيم، الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه، وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته، أو لم يروها فى ذات الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه؟!، وفى ولدها الذى كان فى بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته؟، ولما انفصل عنها وخرج من بطنها وحملت له الغذاء فى ضرعها، وهَدَى اللّهُ ذلك المولودَ إلى معرفة امتصاص حلمة الثدى ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادراً على التغذى بالحبوب والفواكه، والخضر. أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتى إناثها مدفوعةً إلى ذلك بما أودع اللّه فيها من غريزة إتيان الجنس لتحبل الأنثى ذاتُ اللبن، فتوفر للإنسان لحماً، ولبناً، وجبناً، وسمناً، هو فى حاجة إلى مثلها لاستكمال غذائه الذى هو عنصر نمائه وحياته إلى أجله. أو لم يروا إلى ذبابة لقاح التين، كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل فى التينة فتلقحها، ثم تخرج منها لتدخل فى أخرى فتلقحها، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألذ الفواكه، وأكثرها نفعاً له ؟ !. أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب، وهو الضباب الناتج عن تبخر الرطوبات فى الأرض، ومياه الأنهار، والبحار، وكيف يبسط اللّه تعالى ذلك السحاب فى السماء على نسب ومقادير خاصة، فيتكثف فى طبقات الجو، ويصبح يحمل كميات من الماء عذبة صافية ثم يمطر حيث يأذن اللّه تعالى، فتحيا به الأرض بعد موتها ؛ فَتُخرج للإنسان غذاءه من الحبوب، والفواكه، والخضر. فليقولوا لنا: أين الضرورة فى إيجاد اللبن فى الضرع؟ وأين الضرورة فى لقاح الحيوان ؟ وأين الضرورة فى تلقيح ذباب التين لأنثاه حتى يكون التين؟ وأين الضرورة فى عملية التبخر والتكثف، وإثارة الرياح للسحب، ونزول المطر بالمقادير والكميات المحدودة، والأوقات المحدودة، وفى إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة، أين وجه الضرورة فى ذلك ؟؟

إنه لا ضرورة، وإنما هى عناية اللّه الذى أعطى كل شىء خَلْقه ثم هدى. ونختم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية: إن النبات، والحيوان، والإنسان هذه الثلاثة سَلَّم الماديون بحدوثها، وبأن الإنسان أحدثُها عهداً بالحياة، فيقال لهم: من أحدثها ؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول:

الأول: أن نقول: إن اللّه هو الذى أحدثها.

والثانى: أن تكون حدثت بواسطة ذرات المادة، وأجزائها، وعناصرها عن إرادة وقصد، وعناية، بمعنى أن العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هى عليه من صور وأشكال.

والثالث: أن تكون وُجدت من طريق الصدفة بمعنى أن الذرات تلاقت، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدفة، فتكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان.

فأى الفروض أولى بالصحة والقبول ؟ أما الثانى: فالملاحدةُ يردُّونه، ولا يقولون به ؛ لأنه ينسب للمادة قصداً وإرادة، وهم لا يقولون بالقصد والإرادة أبداً. وأما الثالث: فهو محال عقلاً؛ لبطلان قانون الصدفة وفساده كما عُلم، وتقدم. فلَم يَبْقَ إلا الافتراض الأول، وهو أن اللّه تعالى هو الذى خلقها بطريق السُّنن المطردة، التى وضعها لخلق كل المخلوقات، وإيجاد هذا العالم وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحدة الثلاثة التى هى الطبيعة، والصدفة، والضرورة، ووجب الإيمان باللّه الخالق، المدبر، الحكيم، العليم.

والآن ولما ثبت بالبراهين العقلية وجودُ اللّه تعالى، ووجب الإيمان به ربًا وإلهاً ؛ فإنه ينبغى التعرُّفُ إليه سبحانه وتعالى.

معرفة الله جل جلاله ومراتب المؤمنين فيها

إن للمعرفة باللّه تعالى مراتب يترقى فيها المؤمنون به عز وجل حتى يبلغوا الكمال فى معرفة ربهم سبحانه وتعالى وبقدر معرفتهم له جل وعز تكون تقواهم له، وخشيتهم منه، ومحبتهم، وطاعتهم له، وتقربهم إليه، وتوسلهم.

فالمرتبة الأولى: من مراتب المعرفة باللّه عز وجل هى مرتبة علماء الكونيات الذين يحصلون على إيمانهم باللّه، ومعرفتهم له بواسطة النظر والاستدلال بالخلق فى الكونيات، والإبداع فيها، فيؤمنون بخالق ذى قُدرة وإرادة، وعلم، ويعرفونه بتلك الصفات من القدرة، والإرادة، والعلم، والحكمة، والتدبير. غير أنهم يجهلون من أسمائه تعالى وصفاته ما به تعظم

محبتهم له، وخشيتهم منه، وطلبُ التقرُّب إليه، والمنزلة عنده، وذلك لعدم إيمانهم بكتابه ورسوله [1]؛ إذ به تتم المعرفة الحقّة للّه سبحانه وتعالى.

وهؤلاء قد ينفعهم إيمانهم فى الحياة الدُّنيا بقدر ما أثمرَ لهم من تعظيم لله تعالى، ومحبة فيه، وقد ينفعهم فى الآخرة بتخفيف العذاب عنهم.

والمرتبة الثانية: من مراتب معرفة اللّه عز وجل هى مرتبة أهل الإيمان التقليدى الحاصل لهم عن طريق الشعور الفطرى، واستفاضة الأخبار بوجود اللّه تعالَى وشهرتها، ومرتبة هؤلاء فى معرفتهم باللّه تعالى أضعف مراتب المعرفة، وصاحبُها أقلُّ المؤمنين تقوى لله عز وجل، ومحبَّةً له، وخشية منه، وأولئك كعوام المؤمنين من أتباع الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

والمرتبة الثالثة: هى معرفة المؤمنين من أهل الشرائع الإلهية، وهى مرتبة عالية فى معرفة اللّه تعالى والإيمان به، حيث عرف أهلُها اللّهَ تعالى بطريق أخباره عز وجل، وأخبار العارفين به. والمبلِّغين عنه، كما عرفوه عز وجل بواسطة الشواهد والبراهين التى أقامها سبحانه وتعالى لمعرفته، وبواسطة الأدلة والأعلام التى نصبها لذلك، فهؤلاء المؤمنون أكثرُ الناس محبة لله، وطاعة له، وخشية منه، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (فاطر:28).

والمرتبة الرابعة: هى مرتبة معرفة الأنبياء والمرسلين باللّه تعالى، وهى مرتبة أعلى من سابقتها، وأتم وأكمل من كلِّ مراتب المعرفة باللّه عز وجل والإيمان به وحبه وخَشيته وطاعته، والاستقامة على مَنهجه، وتحقيقاً للعبودية، وأداءً لحقوق الربوبية والألوهية ؛ لأن أهلها جمعوا بين صفاء الفطرة، وسلامتها من التلوُّث بالآثام قبلَ نبوَّتهم، ورسالتهم، وبعد اصطفائهم للرسالاتَ ؛ وتشريفهم بحملها وإبلاغها لمن أرسلوا إليهم، وبين المعرفة المكتسبة بالنظر والاستدلال بالبراهين العقلية، وبين العلم اليقينى ؛ لتَلقيهم عن اللّه تعالى وَحْيَهُ، ولمَا أظهره على أيديهم من عظيم المعجزات، وخوارق العادات وَلمَا خصهم به من معارفَ به، وبأسمائه وصفاته ما كانوا به أكملَ المؤمنين إيماناً، وأقواهم يقَيناً، وأكثرهم له تعالى محبةً وطاعة. وأشدَّهُم له تقوى وخشية. كما قال إمامهم وخاتمهم محمدٌ ﷺ وهو يخاطب أكملَ الناس إيماناً باللّه ومعرفةً لهُ بعدَ الأنبياء والمرسلين ـ وهمْ صحابتهُ رضوانُ اللّه عليهم ـ: «**فواللّه إنى لأعلمكم بَاللّه وأشدكمْ لَهُ خشيةً**»[2].

---

(1) المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم. ومن الرسول محمد ﷺ.

(2) رواه البخارى ومسلم. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (3/ 111).

الطريقة الأولى
إلى معرفة الله سبحانه وتعالى
الهداية العقلية

إن العقل السليم إذا أصدر حكماً على شيء ما من الأشياء المحسوسة أو المعقولة ؛ فإن حكمه لا ينتقض أبداً بخلاف حكم غيره مما طريقُه الحواس، أو العادات، أو الاستقراء ؛ فإنه كثيراً ما ينتقض، فالعينُ المبصرة قد تصدر حكماً ما على مرئى من المرئيات بأنه ثابت أو متحرك فتخطئ فى الحكم. والأذنُ السامعة قد تصدر حكماً على مسموع بأنه صوتُ إنسان، أو حيوان، فيتبين خلاف ما حكمت به، وكذا الذوق، أو الشم ؛ فقد يحكم الذوق بأن طعم كذا من المأكولات حلو أو مُر. ويتبين الأمر بخلاف ذلك. ويحكم الشم بأن رائحة كذا طيبة أو كريهة. ويظهر خطأ الحكم.

وأما حكم العادات القائم على التجارب: فإن الخطأ فيه أكثر، وأكثرُ منه خطأُ حكم الاستقراء والتتبع ؛ لأن الإنسان مهما أوتى من قوة لا يستطيع أن يحيط علماً بالأشياء كلها. فلذا كان الخطأ أكثر فى أحكام الذين يبنون أحكامهم على التجارب والملاحظات والقياسات والافتراضات. أما أحكام العقل: فإنها متى ثبتت سلامة العقل وصحته لا تنتقض أبداً، وسواء كانت واجبة، أو جائزة أو مستحيلة.

ومن أمثلة ذلك حكم العقل فى الواجب: أن كل معلول لابد له من علة. وحكمه فى الجائز: أن يسكن المتحرك أو يتحرك الساكن، متى وُجِدَت علة الحركة أو السكون. وحكمه فى المستحيل: أنَّ القائم ليس بقاعد.

وهذه العصمة لحكم العقل السليم من الخطأ تتناول أحكامه الضرورية والنظرية على حدٍّ سواء. ومن أحكام العقل الضرورية: أن الواحد نصف الاثنين، وأن الرجل غير المرأة، وأن المملوءَ من الأوعية غيرُ الفارغ ؛ إذ هذه الأحكامُ تدرك بغير تأمل، ولا نظر أو استدلال.

ومن أحكام العقل النظرية: أن الثلاثة ثمنُ الأربعة والعشرين، وأن الواحد نصف سدس الاثنى عشر، وأنَّ العالم حادث، وأن المعلول لابد له من علة ؛ إذ هذه الأحكام العقلية لا تدرك إلا بالنظر وبالتأمل، ومع هذا فإن الخطأ لا يتطرق إليها أبداً.

ومن هنا، كانت الهداية العقلية أحد طريقى الإيمان باللّه ومعرفته سبحانه وتعالى، فلنذكر هنا جملة من أحكام العقل وقوانينه القاضية بوجود اللّه تعالى، والهادية إلى معرفته عز وجل. ومن ذلك:

١- قانون العلّة:

لقد ركز فى فطرة كل إنسان عاقل أنَّ كلَّ متغَير من جسم أو حال أو صفة، لابد له من سَبب تغير به، ولا يخرج شَيء عن هذا القانون بحال من الأحوال ؛ إذ كل من يرى آنيةً موصوعةً، أو آلة مصنوعة يحكم على الفور بعقله أن لنية واصعها فى مكانها الذى هى موصوعةٌ فيه، وأن لـلة صانعاً صنعها حتماً، ويجعل من المحال أن تكون الآنيةُ قد وُصعت فى مكانها بلا واصع وصعها فيه، وأنَّ الآلة قد صُنعت بلا صانع صنعها.

ويؤمن الإنسان بهذا إيماناً راسخاً، ولا يستطيع أحد أن يقنعه بخلافه أبداً، وذلك لأن العقل حكم بأن كلَّ آلة لابد لها من صانع، وأنَّ كل مُتَغير من الأشياء من صفة إلى صفة، أو من مكان إلى مكان لابد له من علة تغيَّرَ بسببها. وهذا القانون أو الحكم العقلى يسرى على العالم كله بجميع أجزاشه، من المادةً والحركة والتنوعات ـ أى أنواع المخلوقات ـ فى وجوده وتغيره، فلابد لوجوده من علَّة، ولابد لتغيره من سبب أثَّر فيه، فهو يتغير من حال إلى حال لَأجله. وَلابد أن تكون العلة التىً اقتضت وجوده وتغيره علةً كافيةً، وإلا لَما تَمَّ لها هذا الإيجاد والتغير.

وبالنظر إلى مظاهر الإبداع، والقصد، والتنظيم، والتنسيق، والإحكام فى الخلق والإيجاد، والتدبير فى التصريف أثنَاء التغيير والتبديل ؛ فإن العلة التى اقتضت وجود العالم وساشر المخلوقات فيه، لابد وأن تكون ذات قدرة، وإرادة، وعلم وحكمة ؛ إذ لا بد من الكفاية فيها، وإلا لما تم هذا الخلق، والإبداع، والتنظيم، والإتقان، والتدبير الحكيم، ومحال أن تكون العلة الكافية هى الطبيعة لعدم القصد لها، والإرادة، والعلم، والحكمة، كما لا تكون (الصدفة) لاستحالة ذلك مع وجود الإبداع المدهش للعقل، والتنظيم المحيِّر له، والموافقات يستحيل بها تجمُّعُ المادة، وتوافقها حتى يتمَ الخلق، والإبداع، والتنظيم. كما لا تكون ـ ولن تكون ـ الضرورة، إذ نظرية الضرورة سخر منها كل ذى عقل صحيح، ومجها كل صاحب ذوق سليم.

ولم يَبْقَ أن تكون تلك العلة الكافية التى اقتضت وجود العالم وتنوعاته إلا اللّه سبحانه وتعالى وهكذا أصدر العقل السليم حكمه الصحيح الذى لا ينقض أبداً بوجود اللّه ذى الأسماء الحسنى، والصفات العليا، فآمن به المؤمنون، وعرفوه بواسطة هذا الحكم العقلىِّ السليم الصحيح والذى لا يُنقض أبداً .

٢ ـ قانون الوجوب:

إن قانون الوجوب هو أحدُ طرُق الاستدلال العقلىِّ على وجود اللّه تعالى ووجوب الإيمان به، والتعرف إليه، ووجوب طاعته والتقرب إليه. وحقيقة هذا القانون هو أن يقال: إنَّ الموجودات من هذه الحوادث التى يحويها العالمُ العلوىُّ والسفلى من كلُّ الموجودات من جماد، ونبات،

وحيوان، وإنسان، إما أن يكون وجودها واجباً، أو مستحيلاً، أو جائزاً، ولا يخلو أمْرُها من واحد من هذه الثلاثة بحال من الأحوال لقضاء العقل الصحيح بهذا، وتسليم جميع العقلاء به.

وحقيقة الواجب: أنه ما أوجب عدمُ تصور وقوعه تناقضاً عقليًا لا يقبل. وحقيقة المستحيل ـ وهو نقيض الواجب ـ أنه ما أوجب تصورُ وقوعه تناقضاً عقليًا لا يصح.

وحقيقة الجائز ـ ويقال له: الممكن أيضاً ـ أنه ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقليًا لا يصح أو لا يقبل. وبناء على هذا فهل وُجودُ الكائنات واجبٌ أو مستحيل أو جائز ؟

والجواب: أنَّ وجود الكائنات ليس بواجب ؛ إذ تصور عدم وقوعها لا يوجب تناقضاً عقليًا، كما أنه ليس مستحيلاً ؛ إذ تصورُ وقوعها لا يوجب تناقضاً عقليًا، وكيف وهى موجودة فعلاً ؟ إذاً، فإذا لم يكن وجود الكائنات واجباً، ولا مستحيلاً تعيَّنَ أن يكون جائزاً ؛ إذ الأحكام ثلاثة فقط، وإذا تعين أن يكون وجودُ الممكنات جائزاً لا غير، فإنَّنا نقول: ما دامت الكائنات جائزة الوجود ممكنته فقط ـ وقد وجدت فعلاً ـ فما الذى اقتضى وجودَها ورجحه على عدمه ؟ والجواب أن نقول: إنه لابد من علَّة اقتضت الوجودَ ؛ إذ تصورُ وجود معلول بدون علة مستحيل، لإيجابه تناقضاً عقليًا لا يُقبل. وإذاً فما هى هذه العلَّة التى اقتضتَ وجود الكائنات ؟ وكون هذه العلَّة التى اقتضت وجود الكائنات هى الطبيعة باطل ؛ لأن الترجيح لا يكون إلا عن قصد وإرادة، والطبيعةُ لا إرادة لها ولا قَصْد كما يعترف بذلك القائلون بها. وكونها الصدفة باطل، لما تقدم من استحالة ذلك لوجود الإبداع، والتناسق، والتآلف، والوزن الدقيق، ولأن الموافقات لا تتمّ إلا بعقل جبار، وإرادة عظيمة، وتدبير وحكمة، وكونها الضرورة باطلٌ بل من أبطل الباطل ؛ لأن الضرورة ليست إلا وهماً من أوهام الخيال ولا قائل بها البتة، وقد بيَّنَّا أنها عناية اللّه تعالى بمخلوقاته، تلك العناية الإلهيَة التى أعطت كل مخلوق خَلْقه، وهَدَتْه إلى ما يكملُ به وجودُه وتحفظ به حياته إلى أجَله الذى حُدِّدَ له. إذاً، فإنه لم يَبق من علَّة لوجود الكائنات اقتضت وجودَها، ورَجحتْه على خلافه إلا أن يكون اللّهُ جلّ جلاله، هو الذى اقتضى وجودها ورجحه، فكان الكون على ما هو عليه من إبداع وتنظيم. ومظاهرُ القدرة، والعلم، والتدبير، والإحكام، والإتقان كلُّها دالّة على علم اللّه، وقدرته، وكمال تدبيره، وعظيم حكمته.

بهذا عُرفَ اللّهُ جلّ جلالهُ، وآمن به المؤمنون، وأحبوه، وعبدوه، وتقرَّبوا إليه.

٣ ـ قانون الحدوث:

لقد ثبت اليوم ـ وبدون شك ـ حدوث سائر الكائنات الحيَّة، ومن أقربها عهداً بالحدوث الإنسانُ، كما قرر هذا علماء الكون وطبقات الأرض. وبهذا ثبت حدوث العالم بأسره قطعاً ويقيناً؛ لأنَّ الشيء الواحد لا يكون قديماً وحديثاً فى آن واحد، كما لا يكون بعضه قديماً، والبعض

الآخر حديثاً ؛ إذ القول بهذا يوجب تناقضاً عقليًا لا يصح، ولا يُقْبل فى قضايا العقول السليمة.

وإذا سلَّمنا بحدوث العالم كله ـ وهو مُسَلَّم حتى من الطبيعيين أنفسهم ـ فإنَّه لا انفكاك حينئذ من التسليم بوجود علة كافية لإحداثه ؛ إذ وجود معلول ـ وهو الحدوث بدون علَّة ـ يوجب تناقضاً عقليّاً لا يصح ؛ لإطباق العَقول السليمة على رفضه، وعدم قبوله.

هذا، وما فى العالم الحديث من إبداع، ونظام، وتدبير يوجب عقلاً أن تكون العلة التى ترتب عليها حدوث العالم علة كافية، ذات قدرة وعلم، وإرادة وقصد، وحكمة وتدبير، كما يوجب أن تكون العلة واجبة الوجود لذاتها، بحيث لا يُتَصور افتقارها إلى علَّة أخرى لئلا يلزم الدَّور والتَسلسل وهما محالان فى حكم العقول.

وأخيراً فالعلة الكافية التى وجب عقلاً أن تكون، ووجب أن تكون واجبة الوجود هى اللّه الخالق، المدبر، الحكيم، ذو الأسماء الحسنى، والصفات العليا، رب العالمين، وإله الأوَّلين والآخرين.

وبهذا القانون الخاص ـ قانون الحدوث ـ ثبت وجودُ اللّه تعالى عقلاً، ووجب الإيمان به ربًا وإلهاً، وتعيَّنَتْ عبادته بفعل ما يحب، وترك ما يكره ؛ طلباً لرضاه، والسعادة فى جواره الكريم يوم لقائه بعد فناء هذا العالم الحادث وانقضائه.

٤ ـ قانون النظام:

إن التأمل فى الكون كله علويه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى، لا مجال لإنكارها، أو تجاهلها والإغضاء عنها، أو الغض من شأنها، ألا وهى هذا النظام الدقيق العجيبُ، الَذى رُبطت به أجزاءُ الكَون كله من الذرَّة إلى المجرَّة، هذا النظام المدهش، المحير للعقول، الذى يُحيل الَعقلُ البشرى السليمُ أن يكون ناجماً عن صدفة وتلقائية، أو عن تفاعلات كيمائية، أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون، والمغرورون، المخدوعون ؛ إنه لمن أمحل المحال، وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله عن ذى إرادة، وقصد، وعلم، وحكمة، وتدبير، إن نظرةً إلى السماء، إلى خَلْقها، وتكوينها، إلى الإحْكام والإتقان فيها، إلى أبعادها، إلى سعتها، إلى عدد نجومها، ومواقعها، إلى الأفلاك الدائرةَ فيها، إلى ضوء شمسها، ونور قمرها. هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُرى الإنسان العاقل من مظاهر القدرة، والعلم، والإرادة، والقصد، والتصميم ما يجزم معه ببطلان هَراء الماديين، وترهات الملحدين ؛ ويسلم بوجوَد إله عظيم متصف بصفات الربوبية، ونعوت الألوهية.

وأى نظرة فاحصة دقيقة إلى الأرض، إلى خلقها وتكوينها، إلى محيطاتها، وأنهارها، إلى جبالها ووهادها، إلى مرتفعاتها وسهولها، إلى النباتات والأشجار، إلى التنوع فى الحيوانات،

وإلى الاختلاف فى أجناس البشر لوناً ولساناً، تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها، ولا إخفاءها وجحودَها، وهى أنَّ وراء هذا الخلق والإبداع خالقاً، مبدعاً، عليماً، حكيماً، وهو اللّه الذى لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه. قال تعالى فى هذا المعنى من سورة «ق»:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (الآيات:6-8).

إن نظرة عابرة فقط إلى النور، والحَلَك، وهذا الهواء المشترك، إلى ائتلاف الهواء، إلى عناصر الماء، إلى النوعية، والزَّوجية فى كل شىء فيها، وعليها، تكفى فى إقناع ذى العقل بوجود إله ذى قصد وإرادة، وحكمة وتدبير، وقدرة لا تُحَد، وعلم لا يُحيط به أحدٌ، ألا وهو اللّه العزيز الحكيم، اللّه الذى أوجبت العقولُ السليمة وجودَه، ودلت كل ذرَّة فى الكون على علمه، وقدرته، وتدبيره، وحكمته.

٥ ـ قانون العناية بالإنسان:

قبل عرض قانون «العناية» الذى هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان باللّه تعالى، والمعرفة به سبحانه وتعالى، نذكر قاعدة عامة فى الكون كله، قد تخفى على غير المتأملين فى الكون، والدارسين له، وهى أنه لا مجال فى الكون للباطل، ولا محلَّ فيه للعبث بحال من الأحوال ؛ بل الكونُ كله قائم على أساس العدل والحق، والنظام والإحكام. ولا يوجد جزءٌ واحد من أجزائه خلْواً من فائدة مقصودة منه، أو حكمة مُتَوَخَّاة فيه. وهذه الحقيقةُ الكونية تظهرُ بوضوح لكلِّ من تأملَ الكون، ونظر فى حقائقه. وقد قرَّر هذه الحقيقةَ وأكَّدها كتابُ اللّه القرآن الكريم فى قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان:38-39).

وفى قوله: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (ص:27).

ومثل هذه الحقيقة الكونية فى وضوحها وثبوتها قانونُ العناية الذى نعرضه الآن برهاناً عقلياً على وجود اللّه تعالى، وطريقاً من طرق معرفته عز وجل. وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين:

الأولى: خلو الكون كله من أيَّة ظاهرة للعبث، والباطل فيه.

والثانية: أنَّ الكون كلَّه، وبجميع أجزائه مُسَخَّر لخدمة نوع واحد من بين سائر أنواعه، فمنْ أعظم كائن فيه، إلى أصغر كائن وأحقره، الكل يخدمُ ذلك النَّوْع، وهى حقيقة مدهشة للغاية، أن يكونَ هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية، ومخلوقاته الأرضية، الجميع مسخر تسخيراً خاصّاً لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التى حواها الكون، وانتظمها هذا

الوجود المادى القائم على أساس الحقِّ والعدل، والخالى من جنس اللعب والعبث كما سبق بيانه.

وهذا النوع المسخرُ له الكون كله، هو الإنسان وحده، والمثل الذى يوضح هذه الحقيقةَ التى تبدو غريبةً بادئ ذى بدء عجيبة هو: أن يأمرَ أحدُ الملوك العظماء ببناء قصر فخم، كبير، فيبنى على أحسن طراز، ويُجَمل بأحسن أنواع التجميل، ويزوَّد بكل أسباب الراحة، والارتفاق، بحيث يصبح آية فى باب القصور الملكية فى دنيا الناس متعة وجمالاً، ثم يُنْزل به ضيفاً كريماً عليه، ويقول له: لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوالَ حياتك متمتعاً بكلِّ ما فيه من خيرات ونعيم. فالملك هو اللّه، والقصر هو الكون، والضيف هو الإنسان، وهذه الحقيقة قد قرَّرها القرآن أيضاً وأكدها كالحقيقة الأولى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الجاثية:12-13).

ولنستعرض الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان فى الكون:

١ ـ فى السماء:

إن فى السماء الدنيا كواكب كثيرةً، ونجوماً عديدة، وفيها الشمس وفيها القمر، والأرض أكثر تعلقاً بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية، فبالنجوم المشرقة، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التى هى سقف لهذه الدار التى يسكنها الإنسان ويعمرها، وبالقمر المنير ذى المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان، وبه يعرف عدد السِّنين والحساب، وبالشمس المضيئة أشرق النهارُ على الإنسان، وبها عرفَ ليله، وميز نهاره، ومنها استمدت أرضه دفئها، وحرارتها، وطاقتها المودعة فيها، ولولا الشمس لتجمدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة. وفى السماء تتجمع السحب وتتراكم، ومنها تنزل الأمطار مياهاً عذبة، بها حياة الإنسان وسعادته. وفى السماء ـ فى علوها وارتفاعها، وكثرة أجرامها، ومجرَّاتها، وكواكبها، ونجومها، وشموسها، وأقمارها ـ آياتٌ عظام تهدى الإنسان إلى معرفة ربه، وتبين له قدرته عليه، وتُريه سوابغ نعمه به.

٢ ـ فى الأرض:

إن فى الأرض البحار، والأنهار، والمعادن، والجبال، والسهول، والتلال، فيها الأحياء المائية، والحيوانات البرية ذات المنافع العديدة، والفوائد الجمة الكثيرة، وبها الأشجار المظلمة والمثمرة، وبها الزروع، والنباتات التى هى أرزاق وأقوات، وكلها مسخَّرة للإنسان مُعْطاةٌ له، لم يكن فيها شىء لغيره، ولا يخرج منها شىء عن منفعته وفائدته بحال من الأحوال.

وبعد هذا الذى أجملناه فى تقرير كون الوجود كله من أرض وسماء قد وضع مسخَّراً لخدمة الإنسان، وذلك دليل على وجود خالق للكون والإنسان معاً، وهو اللّه تعالى الذى خلق الكون أولاً، ثم خلق الإنسان وسخر له كل ما خلق فى الكون ؛ عناية به، وكرامة له، نذكر ظاهرة كونية واحدة من ظواهرَ العناية بالإنسان لنزيد بها قانون العناية تأكيداً وتوضيحاً، وهى ظاهرة اللقاح فى النبات والحيوان. وهى ظاهرة مسلَّمة من كل العقلاء. فالنباتات كلها فيها الذكر، وفيها الأنثى، ويجرى اللقاح بينها حسب سنَّة ثابتة وقانون مرسوم لا يُخَالَف، وذلك ليتوفر للإنسان غذاؤه من الحبوب، والفواكه، والخضر التى هى العنصر الهام فى غذائه الذى هو قوام حياته. وظاهرة اللقاح فى الحيوان أبين وأوضح، فالتيس مثلاً يطلب أنثاه مندفعاً إليها، ويجرى وراءها، له صوت عجيب، حتى إذا أتم لقاحها، وفرغ منها اعتزلها اعتزالاً كليًّا إلى أن تضع حملها، وترضعه، ويكاد يستغنى عنها، ثم يعاودها التيس مرة أخرى، ويجد من غريزته المودعة فيه دافعاً قوياً نحوها لا يملك التخلى عنه ولا السيطرة عليه حتى يتم مهمته التى هيئ لها.

ولنتساءل، لم يتم هذا ؟ ولصالح مَنْ ؟ إنه يتم من أجل الإنسان ولصالح الإنسان فقط ؛ إذ بهذا يتوفر له قسط آخر مهم من غذائه الذى هو اللبن والجبن، واللحم، كما يتوفر له كساؤه، وفراشه وغطاؤه.

وأخيراً، هذه العناية بالإنسان، المتجلية فى الظواهر الكونية، كلها إن لم تدل على وجود خالق للكون ذى إرادة، واختيار، وعلم، وقدرة، وقصد، وحكمة، خلق الإنسان وسخر له الكون كله ـ كما هو مشاهد محسوس ـ فإنه لم يبق شيء يدل على آخر فى الحياة أبداً، فلا الرماد يدل على النار، ولا النوى تدل على التمر، ولا الكلام يدل على الإنسان، ولا الحركة تدل على الحياة، وحينئذ: فعلى العقلِ العفاء، وعلى الدنيا السلامُ.

الطريقة الثانية

إلى معرفة الله سبحانه وتعالى

الهداية الدينية

قد سبق أن ذكرنا أن طريقة الهداية الدينية تجمع بين الاستدلالين: القياس العقلى، والدينى الشرعى ؛ فهى أعظم طريقتى الهداية إلى معرفة اللّه تعالى والإيمان به عز وجل، وهى التى تبعث المهتدى بها إلى العمل، المزكى للنفس، والمهيئ له لسعادة الدارين، بخلاف الهداية العقلية وحدها ـ وهى الطريقة الأولى من طريقتى الهداية ـ فإنها، وإن أنقذت صاحبها من التمزق

الشخصى، والقلق النفسى ، والحيرة الفكرية، فإنها لا تزكى نفسه، ولا تُقَوِّم أخلاقه، ولا تهيئه لسعادة الدنيا والآخرة، كما أنها لا تخرجه من دائرة الكفر الموجب للعذاب الأخروى، والخلود فيه.

وهذا عرض سريع لطريق الهداية الدينية المفْضية ـ بمن أخذ بها ـ إلى معرفة اللّه تعالى معرفة سليمة تبعث على الاستقامة، وتعد للسعادة والكمال، فى الحال والمآل. وقبل الشروع فى الكلام، نذكر أن هناك حقيقتين ثابتتين ينبغى أن تكونا منطلق التعرف إلى اللّه تعالى، والتعريف به سبحانه وتعالى، هما:

الأولى: أنه لا يعرفُ اللّه كنفسه سبحانه وتعالى، ولا يعرّف باللّه مثلُ اللّه جل جلاله وعَظُمَ سلطانه.

والثانية: أن مصدر معرفة اللّه تعالى، هو كتابه ورسوله ؛ فقد تعرف اللّه تعالى إلى عباده فى كتابه بما لا مزيد عليه. كما أن الرسول ﷺ لم يَألُ جهداً فى التعريف بربه عز وجل، بالحديث عنه وبذكر أسمائه وصفاته حتى عرف المؤمنون ربهم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته، ويحسن أن ننبه هنا إلى أن للتعريف باللّه عز وجل فى الكتاب طرقاً مختلفة، وأساليب متنوعة. منها: أن يخاطب عباده كافةً، مؤمنهم وكافرهم، ويتعرف إليهم فيأمرهم وينهاهم.

ومنها: أن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام فيناديهم، ويخاطبهم ويُوحِى إليهم.

ومنها: أن يتعرف إلى عباده المؤمنين به وبرسله، فيخاطبهم، يأمرهم وينهاهم، يعدهم ويبشرهم، ينذرهم ويحذرهم.

ومنها: إرساله تعالى الرسل، وإنزاله عليهم الكتب، وتأييدهم بالمعجزات والخوارق التى يعجز عنها البشر عادة، ولا يقدرون على مثلها، لكونها لا تخضع للسنن الكونية. وهذا تفصيل ذلك:

أولاً: خطابه عز وجل لكافة عباده فى قوله من سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (الآيتان: 21، 22).

فقد اشتملت هاتان الآيتان على نداء اللّه تعالى للعباد، وأمرهم بعبادته، ونهيهم عن الشرك به وبعبادته. كما اشتملتا على التعريف به تعالى ربًّا خالقاً، مدبراً رازقاً. خلق البشرية كلها، وجعل لها الأرض فراشاً، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، فأخرج لها به من الثمرات رزقها، وما به قوامُ حياتها. كما اشتملت الآيتان على دليلين عقليين:

(الأول): دليل الحدوث.

(الثانى): دليل العناية. وقد سبق بيان كل منهما فى بحث الهداية العقلية، فليرجع إليهما.

وفى قوله سبحانه من سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (النساء:1).

ففى هذا النداء الإلهى، يأمر اللّه تعالى البشريَّة كلها بتقواه، وهى عدم الخروج عن طاعته بترك أمره، أو بفعل نهيه، ويذكرهم بأنه ربُّهم أى خالقهم، ورازقهم، ومدبِّر أمرهم، كما ذكَّرهم بأصل نشأتهم. فاشتمل هذا النداءُ الكريم على التعريف باللّه تعالى بوصفه الخالق، كما اشتمل على دليل عقلى، وهو دليل الحدوث.

وفى قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف:54).

ففى هذا الإخبار الإلهى تعريفٌ باللّه سبحانه وتعالى بوصفه الربَّ الذى خلق الكون كله، علويه وسفليه، وهو يدبر أمره من فوق عرشه. وكما انفرد بالخلق والتدبير انفرد بالأمر والعبادة والتشريع.

كما فى هذا الخبر القرآنى دليل عقلى على إثبات وجود اللّه تعالى، وهو دليل العلة الكافية ؛ إذ الخلق والتدبير مشاهدان فى الكون لكلِّ ذى عينين فلابدَّ إذاً من خالق مدبر للكون. ونَفْيهُ مستحيل، لما يوجب من التناقض العقلى.

وفى قوله عز وجل من سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر:3).

ففى هذا النداء تعرَّف اللّهُ تعالى إلى الناس بأنه ولىُّ نعمتهم ـ نعمة الخلق والرزق ـ وطَلَبَ منهم أن يذكروا ذلك ليشكروه بعبادته وحده. لكونه لا يستحقُّ العبادَةَ سواه، وعجَّبهم من انصرافهم عنه، وهو ربهم الذى لا ربَّ لهم غيرهُ. فاشتمل هذا النداء الكريمُ على دليلين عقليين، هما: دليل الحدوث، ودليل العناية.

وفى قوله تعالى من سورة الحُجُرات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:13).

فاشتمل هذا النداء الإلهى على التعريف به تعالى بوصفه الخالقَ، والمدبِّرَ ذا العلم، والخبرة التامة، فمن مظاهر تدبيره للناس، أن جعل حياتهم اجتماعيةً ليتم التعاون بينهم على تحقيق سعادتهم، ولو شاء لجعلهم يعيشون على نمط حياة البهائم والحيوانات، فلا أسرة، ولا قبيلة، ولا شعب، وحينئذ لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات، فلا مدنية، ولا حضارة، بل ولا إنسانية ولا كرامة آدمية. كما اشتملت الآية على دليل الحدوث، والعناية أيضاً .

وفي قوله من سورة لقمان عليه السلام: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (لقمان:10-11).

ففي هذا الخبر الإلهي تعريفٌ باللّه تعالى بصفات الكمال التي انفرد بها دون غيره. وهي خلق السموات خلقاً محكماً بما أودع فيها من قانون «الجاذبية» فتماسكت أجرامها، ولم تحتج إلى ما يدعمها من وسائل الدعم التي عرفها الناس -كالأعمدة ونحوها- وإلقاؤه تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب بأهلها ولا تميل بهم فيهلكوا. ونشره تعالى آلاف الدواب المختلفة نوعاً، وشكلاً وخاصية. وفوائد نشره في الأرض التي هي كالمائدة الكبرى للإنسان، وكالفندق العظيم للإقامة والسكن. وإنزاله عز وجل المطر من طبقات الجو السامية. وإنباته النباتات المختلفة التي هي أصل غذاء تلك الدواب التي بثَّها في الأرض. كما اشتمل آخر الخبر المذكور على تحدٍّ صريح لأولئك الذين يؤلهون غيره تعالى من مخلوقاته بأن يشيروا إلى شيء ما قد خلقته آلهتهم الباطلة المزعومة. كما اشتمل الخبر أيضاً على الأدلة العقلية التالية: دليل الحدوث، ودليل العناية، ودليل النظام، ودليل الوجوب.

وفي قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (الآيتان:5،6).

ففي هاتين الآيتين من كتابه تعالى يتعرف سبحانه وتعالى إلى عباده من خلال صفاته العليا، وهي كونه الخالق، القوي القادر، المدبر، العزيز، الغفار، كما يتعرف إليهم بنعمه عليهم في خلقهم، وجَعْل الأرض مناسبةً لحياتهم فيها باختلاف الليل والنهار عليها، وبوجود الشمس والقمر مُسخرين فوقها، القمر ينيرها، وبه تُعْرف شهورها وأعوامها، والشمس تضيئها، وتدفئها، وتجعل الحياة صالحة فيها.

وبإنزال الأنعام، ذات اللحوم، والألبان، والأصواف والأشعار، والأوبار، حيث يشربون ألبانها، ويركبون ظهورها، ويأكلون لحومها، ومن أصوافها، وأوبارها، وأشعارها يلبسون ويتأثثون.

بتلك الصفات العُلَى، وهذه النعم العظمى يتعرف اللّه جل جلاله إلى الناس، ويخبرهم بأنه هو ربهم، وإلههم، لا ربَّ لهم غيره، ولا إله لهم سواه، ويُعجِّبهم[1] من انصرافهم عنه،

(1) يحملهم على التعجب.

وإقبالهم على سواه. وقد اشتملت هاتان الآيتان على كل القوانين العقلية، من دليل الوجوب، والحدوث، والنظام، والعناية، والعلة، وبأى تأمل فى الآيتين يظهر ذلك جلياً.

وفى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الآيتان: 28، 29).

ففى هاتين الآيتين من كتابه تعالى يُعَجب تعالى عباده من كفرهم به وجحودهم له، مذكراً لهم بحال العدم السابقة لخلقهم، وبحياتهم وموتهم، ثم بَعْثهم بعد فنائهم، ورجوعهم إليه ليحكم بينهم، ويجزيهم برحمته وعدله، ويتعرف إليهم بدليل عنايته بهم، وبقدرته عليهم، وبعلمه بهم. كما اشتملت الآيتان على أدلة: الحدوث، والعلة، والعناية.

ثانياً: خطابه تعالى لخواص عباده من أنبيائه ورسله، وتعرفه إليهم بندائهم، ووحيه إليهم، وإنزال ملائكته عليهم. ومن ذلك نداؤه لآدم أبى البشر عليه السلام، وخطابه إياه فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الآية: 35).

وقوله من سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ (الآيات: 115، 119).

فقد نادى آدم فى الآية الأولى، وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه، وأباح لهما كل ما فيها من الأطعمة، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة، وحذرهما من ذلك.

وفى الآية الثانية أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس امتنع، فخاطب الربُّ تعالى آدمَ مُعْلماً إياه بعداوة إبليس له ولزوجه، ومحذراً لهما من الخروج من الجنة إنْ هما أطاعا إبليس، وأكلا من الشجرة التى حرم عليهما.

ومن ذلك خطابه لنوح، ووحيه إليه، ونداؤه إياه فى قوله تعالى من سورة «هود»: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الآية: 36).

وفى قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (الآية: 37).

وفى قوله تعالى: ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (الآية:48).

ومن ذلك خطابه لإبراهيم عليه السلام، وعهده إليه وإلى ولده إسماعيل ببناء البيت العتيق، وتطهيره للطائفين والعاكفين، ونداؤه إياه، ووحيه إليه، فى قوله من سورة البقرة: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:124).

وفى قوله: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (البقرة: 125).

وفى قوله: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات: 104 ـ 105).

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ (النساء: 163).

ومن ذلك نداؤه تعالى لموسى عليه السلام، وإعلامه بأنه ربه، الذى لا إله إلا هو، وأمره إياه بعبادته، وبإقام الصلاة لذكره، وسؤاله إياه عما فى يمينه وإجابة موسى له ؛ وأمره تعالى له بإلقاء العصا فى حديث ممتع جميل تَمَّ لموسى مع ربه جل وعلا بجانب الطور، وذلك فى قوله تعالى من سورة طه: ﴿ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ (الآيات:11-14).

وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ (الآيات:17-47).

ومن ذلك نداؤه لداود عليه السلام، وإخباره إياه باستخلافه له ؛ وأمره إياه بالعدل والحكم بالحق، ونهيه إياه عن اتباع الهوى فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص:26).

ومن ذلك استجابته لأيوب لما دعاهُ لكشف ضره، فكشفه عنه، وأعطاه ما فقده من أهل ومال، وأرشده إلى استعمال الماء غسلاً وشرباً لشفائه من مرضه، وأفتاه فى يمينه حتى لا يحنث فيها، وذلك فى قوله تعالى من سورة ص: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (الآيات: 41 ـ 44).

ومن ذلك نداؤه تعالى لزكريا عليه السلام، وتبشيرُه إياه بيحيى لَمَّا سأله الولدَ، وإعطاؤه الآية على ذلك فى قوله تعالى من سورة مريم: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (الآية: 7).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم: 10).

ومن ذلك نداؤه لعيسى ابن مريم عليهما السلام، وخطابُه إياه، وتذكيره بنعمته عليه وعلى والدته، وتأييدُه بروح القدس، وإخبارهُ بأنه متوفيه ورافعُه إليه، فى قوله عز وجل من سورة المائدة: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (الآية: 110).

وفى قوله من سورة آل عمران: ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (الآية: 55).

ومن ذلك نداؤه لمحمد ﷺ، وخطابُه إياه، وإرساله، وأمره، ونهيه، وإرشاده له، وتعليمه فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كتابه الذى أنزله عليه، وجعل هداية أمته فيه، كقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (الآية:67).

وقوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الآيتان: 45، 46).

وقوله عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (الآيات: 1 ـ 3).

وقوله من سورة الجاثية: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ (الآيتان: 18، 19).

ثالثاً: نداؤه تعالى لعباده المؤمنين، وأمرُه إياهم، ونهيه لهم، وإخبارُهم. وذلك في قوله من سورة آل عمران: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (الآيتان: 102، 103).

وفي قوله من سورة الحج: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (الآيتان: 77، 78).

وفي قوله من سورة الزخرف: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (الآيات: 68 ـ 70).

رابعاً: اصطفاؤه للرسل وإرسالهم إلى الناس يبلغون عنه شرائعه وأحكامه، ويبشرون أولياءه برحمته، وينذرون أعداءه من نقمته.

ومن ذلك إرساله نوحاً عليه السلام في قوله تعالى من سورة نوح: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الآيات: 1 ـ 4).

ومن ذلك إرساله هوداً، وصالحاً عليهما السلام إلى كل من عاد، وثمود، كما في قوله تعالى من سورة هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (1) إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الآيتان: 50 ـ 51).

وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود: 61).

ومن ذلك إرساله إبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، وموسى، وعيسى عليهم السلام، كما جاء ذلك

(1) أي على إبلاغهم، وتعليمهم توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون غيره.

فى قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الآية: 26).

وفى قوله من سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (1) (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (2) (الصافات: 133 ـ 138).

وفى قوله من سورة الأعراف: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: 85).

وفى قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (هود: 96 ـ 98).

كما أرسله إلى بنى إسرائيل قومه ؛ إذ جاء ذلك فى قوله تعالى من سورة الصف: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الآيتان: 5 ـ 6).

ومن ذلك إرساله محمداً ﷺ وهو خاتم النبيين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وفى قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الآية: 158).

وقوله من سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (الآيات: 45 ـ 48).

إن هؤلاء الرسل جميعاً ـ وغيرُهم كثير ـ قد أوحى الله تعالى إليهم وعرفهم بنفسه فعرفوه، وأرسلهم إلى أممهم فبلغوهم رسالاته باسمه ودعوا إليه بإذنه، واستنصروه فنصرهم، وسألوه العظائم من المعجزات فأعطاهم. فهل بعد هذا يطالب عاقل بالدليل على وجود الله تعالى، ووجوب الإيمان به. وبمعرفته، وعبادته، والتقرب إليه ؟ ! اللهم لا، اللهم لا.

(1) أى وقت الصباح وهو النهار.

(2) أى ما حل بهم من الهلاك فتعتبروا به.

خامساً: ما أنزله تعالى من كتب بطريق الوحى المباشر حيث أنزل صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وفرقان محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

فهذه الكتب قد تلقاها المرسلون وحياً وأوحاها اللّه تعالى إليهم، وتلقاها أتباع أولئك الرسل عن رسلهم، ولم يشكّ أحد منهم فى أنها وحى اللّه، وكتبه أنزلها على رسله، وفيها أمره ونهيه، وإخباره ووعده، ووعيده، وشرائعه، وأحكام دينه، وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف، والزيادة والنقص، فإن القرآن الكريم كتاب محمد ﷺ[1] وهو أحدثها نزولاً، لم يزل غضّاً طريّاً كما نزل، لم ينقص منه حرف، ولم يزد فيه آخر، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأمى الذى لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يجلس بين يدى أستاذ قط. وقد اشتمل كتابه ﷺ -القرآن- على علوم ومعارف بهرت العقول، وأخذت بالمشاعر والقلوب فما من علم من العلوم الإلهية، والإنسانية إلا وذُكر فيه طرف منه وأشير إلى دقيقة من دقائقه، أو جليلة من جلائله. فسبق[2] الزمانَ بإشاراتهَ إلى شتى العلوم، والمخترعات العصرية، فذكر الذرة[3]، ونظام الزوجية[4] فى كل أجزاء الكون وذراته، كما أشارَ إلى اتساع الكون[5] وكروية الأرض[6]، وذكر مبادئ الصحة[7]، ووضع قواعد العدل فى الحكم[8]، وأسس الآداب الرفيعة والأخلاق البشرية الفاضلة، الشىء الذى لم تعهده البشرية فى كتاب غيره[9].

فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلهية، والكونية، والقانونية التشريعية فى كل مجالات الحياة ما لم يَدَّع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه، أو تركيبه وتأليفه، وكل ما فى الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهراً وصفاء، وصدقاً وأمانة، وعدلاً ورحمة.

---

(1) فإن قيل: هل تصح إضافة الكتاب إلى محمد ﷺ ؟ قلنا: نعم، لإضافة كتاب موسى إليه فى قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (الأحقاف:12).

(2) الضمير المستتر يعود على القرآن.

(3) فى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7).

(4) فى قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات:49).

(5) فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:47).

(6) فى قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر:5).

(7) فى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف:31).

(8) فى مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء:58).

(9) وذلك بمثل قوله -عز وجل- من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:90).

فما مصدر هذا الكتاب، ومَنْ أنزله ؟ فهل يَحسن السكوت عن الجواب ؟ أو يحسن الكذب والمغالطة فنقول: فاض به وجدان محمد الأمى كما يقول المضللون !! أو ماذا عسى الإنسان العاقل أن يقول ؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف بأنه تنزيل اللّه، وكتاب اللّه، ووحىَ اللّه، ولازم ذلك أن اللّه منزله موجود، وأنه عليم قدير، وعزيز حكيم. وأن من نزل عليه هو نبى الله ورسوله، وأن كل ما جاء فى هذا الكتاب حق، وصدق، وعدل. وأن الهداية البشرية متوقفة ـ لا محالة ـ عليه، وأن السعادة الإنسانية منوطة بالإيمان به، والأخذ بما فيه.

سادساً: ما آتى الله عز وجل رسله من معجزات خارقة لسنن الكون، وقوانين الحياة تدليلاً على صدق نبوتهم وثبوت رسالتهم، ومن ذلك: معجزة إبراهيم أبى الأنبياء ، وإمام الموحدين ـ بلا منازع ـ حيث ألقى به خصوم الحق والتوحيد من المشركين والجاحدين، ألقوه فى أتون جحيم تخلصاً منه، ونقمة عليه، فخرج منها بحمد الله تعالى ولم تحرق النار سوى كتافه الذى شُدت به يداه، وقيدت به رجلاه، فكانت معجزة خارقة لقانون الأجسام القابلة للاحتراق إذا ألقيت فى النار، أو أشعلت فيها. (1)

ومن ذلك معجزات موسى عليه السلام التى لا ينكرها إلا مكابر «سوفسطائى »، ولا قيمة له بين عقلاء البشر، فإن انفلاق البحر لمرور أمة بكاملها عليه، واجتيازه لم يكن إلا إحدى الخوارق التى يطأطئ لها الإنسان رأسه إجلالاً وإعجاباً(2). وإن تفجُّر اثنتى عشرة عيناً، تشرب من كل عين منها قبيلة بكامل أفرادها، لخارقة لا يملك العقلاء عندها إلا التسليم بها. (3)

ومثلهما العصا التى يلقيها موسى باسم الله فتنقلب حية تسعى، وتهتز كأنها جان، وتلقف كل الباطل أمامها. (4)

ومن ذلك معجزات عيسى عليه السلام، كإبرائه الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وكَتكَلُّمه فى المهد فى أيام ولادته الأولى. (5)

---

(1) ثبت هذا بالقرآن كلام الله، إذ يقول تعالى فى حكاية دعوة إبراهيم عليه السلام قومه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:68-69).

(2) جاء هذا فى قول رب العالمين: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (الشعراء:63-65).

(3) قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (البقرة:60).

(4) قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف:107).

(5) قال الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ (المائدة:110).

ومن ذلك ما أوتى محمد رسول الله ﷺ من معجزات كالعروج به إلى الملكوت الأعلى[1]، ورد عين قتادة بعد أن سقطت متدلية على وجنته[2]، ونطق جذع النخلة، وحنينه إليه[3]، وسلام الحصى،[4] والشجر عليه[5]، وفيضان الماء من بين أصابعه فى صحراء قاحلة لا ماء بها حيث سقى وشرب وتطهر جيش بأكمله، عدد أفراده ألف وأربعمائة فرد[6]، وكل هذه المعجزات له وغيرها قد شاهدها عشرات المئات من الناس، ممن هم أكمل الناس صدقاً ومعرفة، وصلاحاً، بحيث تواطؤهم على الكذب يُعَدُّ مستحيلاً عقلاً.

فهذه المعجزات ـ وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية ـ فهل تدل على غير وجود الله ربًا وإلهاً ذا صفات متناهية فى الكمال؟؟؟

اللهم إنها لا تدل إلا عليك، ولا تُعَرِّف إلا بك يارب العالمين، وإله الأولين والآخرين، سبحانك أن تخفيك ألسنة الجاحدين.

والآن فليقل المنصفون: بمن يجب أن يؤمن العقلاء: أبإله يخلق ويرزق، ويدبر، يحيى ويميت، ويضر وينفع، ينزل الكتب، ويرسل الرسل، ويضع الشرائع والقوانين، ويهدى ويضل، ويسعد ويشقى، يوالى ويعادى، ويحب ويبغض، ويعطى المعجزات ويهب الكرامات، له تسعة وتسعون اسماً وصفة كلها أسماء حسنى وصفات عليا، يُكلم ويَعْلَم، ويسمع ويجيب، يرفع ويضع، يُعِزّ ويُذِلّ، يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والعدوان ؟؟؟

أم يؤمن بطبيعة ميتة عمياء صماء بكماء لا إرادة لها ولا اختيار، لا تسمع دعاء، ولا تجيب نداء، لا تحب ولا تكره، لا تضر ولا تنفع، لا تعلم ولا تكلم، لا تنزل كتباً ولا تبعث برسول، ولا تشرع ولا تقنن، لا تهدى ولا تضل، لا اسم لها ولا صفة، سوى الحدوث والموت، والصمم والبكم والعمى ؟!!!

ألا، فليقولوا لنا !!، أما نحن فقد آمنا بالله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان

---

(1) ثبت الإسراء والمعراج فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بالتواتر مع ذكره فى سورة الإسراء بالقرآن. راجع اللؤلؤ والمرجان (1/ 35-39)، والبخارى (1/ 92-94)، فى مواضع أخرى تبلغ تسعة مواضع، وكذا مسلم فى (1/ 99-107)، وفى موضع آخر.

(2) ورد هذا فى سيرة ابن هشام فى الحديث عن غزوة أحد (3/ 33).

(3) نطق عذق النخلة ثبت عند الترمذى فى كتاب المناقب. باب رقم 9 وحديث رقم (2632)، أما حنين الجذع فقد جاء فى صحيح البخارى (2/ 11).

(4) راجع الترمذى. كتاب المناقب. باب (8). حديث (3630).

(5) ذكره مسلم فى (8/ 58، 59).

(6) راجع البخارى (7/ 148).

عرشه على الماء، خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، وخلق ذريته من ماء مهين، خلق كل شيء وملكه، خلق بقدرته ودبر لحكمته، أنزل الكتب وأرسل الرسل، يدعى فيجيب، ويسأل فيعطى، ويستنصر فينصر ،يهدى من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بعدله، فبمعرفته ومحبته تنثلج الصدور، وتمتلئ النفوس بالسعادة والحبور. لا أُنْسَ بغير ذكره، ولا سعادة بغير طاعته، الحياة بدون الإيمان به موتٌ، والوجودُ بغير عبادته عدم ،رضاه أملُ الآملين، وغاية العاملين، لا نرضى بغيره بدلاً، ولا نبغى عن طاعته حولاً، معرفته ومحبته جنة القلوب، لا نصب فيها ولا لغوب.

اللهم كما وهبتنا الإيمان بك، وهديتنا إلى معرفتك، فسخرنا لطاعتك، امنن علينا بمحبتك، وأكرمنا بولايتك، وألبسنا ثوب عافيتك، واخلع علينا حُلل رضوانك، آمين.

أسماء الله تعالى وصفاته

المؤمنون بالله تعالى ليسوا على درجة واحدة فى معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، إذ منهم من لم يعرف الله تعالى إلا لكونه خالقاً، مدبراً، حكيماً، ذا إرادة واختيار، إليه منتهى الكمال، والجلال، والجمال، وذلك، لأنهم آمنوا بالله تعالى، وعرفوه بواسطة النظر والاستدلال، والقياس العقلى، وهى الهداية العقلية مجردة عن هداية الدين الشرعية.

ومنهم من عرف الله تعالى بصفات الخلق، والإرادة، والتدبير، والحكمة، وبانتهاء الكمال، والجلال، والجمال إليه تعالى، وعرفه بجميع أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأهل هذه المعرفة هم أهل الهدايتين العقلية النظرية، والدينية الشرعية، لأن من أسمائه تعالى ما لا يُعْلَم إلا عن طريق الوحى الإلهى فقط. فالله أعلم بأسمائه وصفاته من خلقه، وأنبياء الله ورسله أعلمُ بذلك من غيرهم ممن لم يهتدوا بهداية الوحى الإلهى من سائر الناس.

وحذراً من الكذب على الله تعالى، وخوفاً من تكذيبه تعالى، ولا سيما وقد توعد الله تعالى مكذبيه والكاذبين عليه فى قوله من سورة الزمر: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ (الآية: 32).

فإن المؤمنين بالوحى الإلهى، العارفين بأسماء الله تعالى وصفاته يلتزمون حيال أسمائه عز وجل وصفاته بمبدأين، لا يجيزون الخروج عنهما بحال من الأحوال، لما يؤدى إليه الخروج عنهما من تكذيب الله تعالى أو الكذب عليه، والعياذ بالله تعالى من ذلك كله.

المبدأ الأول: أن لا يُسَمُّوا الله تعالى باسم له لم يُسَمِّ به تعالى نفسَه فى كتابه أو على لسان

رسله عليهم السلام، فهم إذا دَعَوه دَعَوه بأسمائه الحسنى حيث انتدبهم لذلك فى كتابه بقوله من سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 180).

وإذا نعتوه وعَرَّفوا به نعتوه بصفاته، وعَرَّفوه بأفعاله وآياته الدالة عليه جل جلاله، وعظم سلطانه.

والثانى: أن لا يُشَبِّهوا اللّه تعالى فى ذاته، ولا صفاته، ولا أفعاله بذوات المخلوقين، ولا بصفات المحْدَثين ولا بأفعالهم ؛ لاستحالة وجود شَبَه لله تعالى عقلاً وشرعاً. أما الشرع: فقد أخبر تعالى فى غير موضع من كتابه بنفى الشبيه له والكفؤ، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

وقال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وأما العقل: فإن خالق المادة لا يكون مادة، وما لم يكن مادة فكيف تشبهه المادة، وهل يُشَبَّه ما ليس بمادة بما هو مادة ؟ فلذا قضى العقل باستحالة أن يُشَبَّه الخالق بمخلوقاته.

ومن هنا، فالمؤمنون يصفون ربهم بكل ما وَصَف به نفسَه فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يتحرجون من ذلك أبداً.

فيقولون: إن اللّه يسمع ويبصر، ويحب ويبغض، وخلق بيديه، واستوى على عرشه، ويجىء لفصل القضاء، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وكلَّم موسى، وذلك لأمور.

أحدها: أنه ما دام تعالى قد وصف نفسه بهذه الصفات، ووصفَه بها رسوله ﷺ وهو أعلم الناس به تعالى لم يَبْقَ إذاً من معنى للتحرج فى وصفه تعالى بذلك ؛ إذ لو لم يكن ذلك جائزاً ومشروعاً لَنهَى عنه تعالى فى كتابه، وحرَّمه على لسان رسوله ﷺ ، كما حرم تكذيبه والكذبَ عليه، ووصفه بما هو براء منه من سائر الأوصاف والنقائص المنافية للكمالات الإلهية كأن يكون له صاحبة أو ولد، أو شريك فى الملك، أو ولىٌّ من الذل.

وثانيها: أنهم عندما يصفون ربهم بصفاته التى وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسولهُ ﷺ ، هم يعلمون يقيناً أن هذه الصفات محال أن يكون شىء منها يشبه صفات المخلوقين للفرق الكبير، والبَوْن الواسع بين الخالق والمخلوق، فإذا وصف اللّه تعالى نفسه بأن له يداً، ووصفه المؤمن بها: فليس معنى ذلك أن يد اللّه تشبه يد الإنسان، وأن المؤمن يخطر على باله أن شَبَهاً ما بين يد الخالق ويد المخلوق، لا، واللّه، لأن الفرق بين يد اللّه تعالى الخالق، ويد الإنسان المخلوق كما بين ذات اللّه الخالق، وذات الإنسان المخلوق، وإذاً فلا مشابهة بين يد الخالقَ ويد المخلوق البتة، ولذا فالمؤمنون لا يؤولون صفات اللّه تعالى، ولا يُحَرفونها، أو يعطلونها خوفاً من

التشبيه؛ لأنهم يعلمون أن الشّبَهَ بين صفات الخالق وصفات المخلوق مُحالٌ عقلاً وشرعاً، ولا واقع له فى الخارج أبداً، ولذا هم يَعُدُّون من الكذب والباطل أن يُشَبه المرءُ الخالقَ عز وجل بالمخلوقين، أو يُشَبِّه صفاته تعالى بصفاتهم، وذلك كأن يقول: يدُ اللّه كيد الإنسان، أو عين اللّه مثل عين الإنسان، أو استواء اللّه على عرشه كاستواء الإنسان على عرشَه مَثلاً !، إذ هذا كله ومثْلُه: باطلٌ لا واقع له فى الخارج أبداً، وهو كذب بحت، وَافتراء مَحض، وذلك لقضاء العقول باستحالة وجود شبه ما بينَ الخالق والمخلوق فى الذات، والصفات والأفعال.

وثالثها: أن العقول السليمة لا تُحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات، وبإطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماماً بين الصفتين، وبين الذاتين الموصوفتين بهما، وذلك كلفظ «الرأس» فإنه يُطْلق على المال والإنسان، فيقال: رأس المال، ويقال: رأس الإنسان، ولا شبه بينهما البتة ؛ وذلك لانعدام الشبه بينَ الذاتين الموصوفتين بهما، وهذا لفظ «العينَ» يطلق إطلاقات فيقال: عين الشمس، وعين الماء، وعين الحيوان، ولا شبه بين تلك الذوات التى أطلق عليها لفظ «العين» المشترك بينها إلا فى مجرد الاسم فقط.

وأخيراً، فهداية المؤمنين فى هذه العقيدة عقلية ودينية، فالعقلية: هى استحالة إدراك كُنْه ذات الله تعالى، وكنه صفاته ؛ لأن ذات الرب تعالى ليست مادة فَتُدْرك، وصفاتُه من ذاته، وَمتى استحال إدراك كُنْه الذات استحال كذلك إدراك كنه الصفات. والدينية الشرعية: هى إخباره تعالى بأنه ليس كمثله شىء، وأنه لم يكن له كفواً أحد، وأن الخلق لا يحيطون به علماً، مع وصفه تعالى لنفسه بصفات شتى ذاتية: كالسمع والبصر، واليد، والعين، والرضا، والغضب، والحبِّ والسخط، وفعلية: كالمجىء، والنزول، والخلق باليد، والاستواء على العرش، وما إلى ذلك مما ورد من الصفات فى الكتاب الكريم والسنة الشريفة معاً.

خلاصة: وخلاصة هذا البحث فى باب الأسماء والصفات الإلهية، هى أن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء اللّه تعالى وصفاته ؛ إذ بهما تمت معرفتهم له تبارك وتعالى، ويدعون اللّه تعالى بأسمائه، ويصفونه بصفاته غير مُشَبِّهين صفاته بصفات المخلوقين، ولا مؤولين لها ولا مُعَطلين، ومع اعتقادهم الراسخ بأن اللّه ليس كمثلَه شىء، وبالعجز الكامل فى إدراك كُنْه ذاته تعالى أو كُنْه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء.

وبذلك سَلموا من تكذيب ربهم، ومن الكذب عليه، ونجوا تبعاً لذلك من العذاب المتوعَّد به من كذَّب اللّهَ تعالى أو كذب عليه فى قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ (الزمر:32).

براءة واعتذار !!

اللهم إنى أبرأ إليك منْ كفر كل مَنْ كفر بك، ومنْ إلحاد كل مَنْ ألحد فى أسمائك أو صفاتك، ومن شرك كل مَن أشرك بك فى ربوبيتك أو ألوهيتك.

وأعتذر إليك من كل استدلال استدللتُ به عليك، ومن كل قياس عقلى وضعتهُ تدليلاً على وجودك، وأنت مُوجد كل موجود، ومن كل برهان أتيتُ به على إثباتك، وإثبات جلالك وكمالك، ومن كل دليل مادى سَقتُه لأثبتَ به وجودك ؛ لأنك يا ربى أنت الدليل على وجودك، والبرهان على جلالك وكمالك، فكيف يصح طلبُ الدليل للدليل، والإتيان بالبرهان على البرهان ؟؟

قالوا ائتنا ببرهان فقلتُ لهم ... أنَّى يَقُوم على البرهان برهانُ

اللهم، إنا ـ كلُّ عبادك المؤمنين بك ـ قد عرفناك بك، ولم نعرفك بغيرك، إنك أنت الذى تعرفتَ إلينا بنعمك وآلائك علينا، وبنور الإيمان الذى جعلتَ فى قلوبنا، فعرفناك ربنا، ورب كل العالمين، وإلهنا، وإله الأولين والآخرين.

اللهم، إننا لم نعرفك ـ وأنت تعلم ـ بقياس، ولا تطلُّب منّاً لك والتماس، وإنما عرفناك بما فطرتَ نفوسنا عليه من الإيمان بك، والافتقار إليك، والتوكل والاعتماد عليك. فطرنا بوجودك ناطقة، وأحوالُنا المتبدلة المتغيرة بكمالك شاهدة ! هيهات هيهات يا ربنا أن تُعرفَ بالقياس[1]، وأنت رب الناس، وملك الناس، وإله الناس، أو أن تُثْبَت بالدليل وأنت خالق المستدلِّ والدليل.

اللهم إن شفيعى عندك، ووسيلتى إليك فى العفو عنى، ما قد علمته منى من شعور[2] بالحياء والخجل، وأنا أدلل عليك وأبرهن على وجودك، وأنت الظاهر الذى لا يخفى، والموجود الذى به قام كلُّ الوجود !

---

(1) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) فى كتاب توحيد الربوبية من فتاواه: أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قيل له: بماذا عرفت ربك؟ فقال: من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره فى التباس، خارجاً عن المنهاج، ظاعناً فى الاعوجاج، عرفته بما عرف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه. وذكر أيضاً أن شيخاً عارفاً قيل له فى ذلك فقال: عرفت الأشياء بربى، ولم أعرف ربى بالأشياء. مجموع فتاوى ابن تيمية (2/ 18).

(2) حقاً لقد كنت أشعر بشعور غريب لم أستطع أن أعبر عنه إلا بأنه ضرب من الحياء والخجل، وما فى معناهما، وذلك أثناء كتابتى للبحوث المتعلقة بوجود الله تعالى والإيمان به فى هذه الرسالة، لا سيما عند الاستدلال والنظر، والقياسات العقلية، إذ كان يهاجمنى شعور باطنى فطرى بأن الله تعالى لا ينكر وجوده، ولا يقوى على إنكار وجوده أحد، وكيف نرضى بالحياة أن نقبلها خالية من الله والإيمان به؟ وكيف؟؟!!

التوحيد

ما هو التوحيد ؟

التوحيد: مصدر وحد الشيء، يوحده توحيداً: إذا أفرده، ونفى عنه التعدد. والتوحيد فى عرف الشرع نفى الكُفء والمثل عن ذات اللّه تعالى وصفاته، وأفعاله، ونفى الشريك فى ربوبيته، وعبادته عز وجل. قال تعالى فى نفى الكفء: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وقال فى نفى الشَّريك فى الربوبية: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ (الرعد:16).

وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ (يونس:31).

وقال فى نفى الشريك فى العبادة: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (محمد:19).

وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:162).

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد فى الذات، والأسماء والصفات، وتوحيد فى الربوبية، وهى اختصاصه تعالى، وتفرُّده بالخلق، والرزق، والتدبير لسائر الخلق والملكوت، وتوحيد فى الألوهية، أى فى العبادة، وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات، وتفرده بها دون سائر مخلوقاته سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة والأنبياء، والصالحين، أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات.

وقد تقدم قريباً بحث توحيد الذات، والأسماء والصفات، وسيفرد كل من توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ببحث خاص، تبين فيه حقيقته، وما ينبغى للمؤمن أن يعلمه منه، ويعتقده فيه.

توحيد الربوبية

ما هو توحيد الربوبية ؟

لابد للإجابة عن هذا السؤال إجابة كافية تحدد المعنى المسئول عنه، وتُظْهره بوضوح، لابد من معرفة مدلول كلمة (الرب) التى منها اشتق لفظ الربوبية، إن لفظ «الرب» يطلق على عدة معان، منها السيد، والمالك، والمربى والمصلح، والمعبود بحق سبحانه وتعالى ؛ إذ لفظ الرب يطلق عليه إطلاقاً حقيقياً. ويطلق على غيره إطلاقاً مجازياً، إضافياً لا غير.

ومن هذه المعانى الكثيرة للفظ «الرب» اشتق اسم الربوبية التى تعنى الخلق، والرزق، والملك، والسيادة، والتربية، والإصلاح، والتدبير. ولكون اللّه تعالى هو الرب الحق للعالمين، اختص بالربوبية دون سواه، ووجب توحيده فيها، وامتنع عنه الشريك فيها، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره من سائر خلقه ولا تصح.

ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه نفى الشريك عنه تعالى فى صفات الربوبية الحقة، والتى هى الخلق، والرزق، والملك، والتدبير الذى من لوازمه الإماتة والإحياء، والعطاء والمنع، والضر والنفع، والإعزاز والإذلال. ولا يُخلُّ بتوحيد الربوبيةَ، أو يضرَه أن يقال: فلان رب الدابة، أو فلان سيدَ قومه، أو فلان يملكَ كذا، أو فلان يربى، أو يصلح، أو يحكم ؛ إذ هذا الإطلاق لا يعنى أكثر من أن اللّه تعالى رب كل شىء، ومليكه، وهبهم من فضله ما أصبحوا منه يتمتعون بهذا القدر من الملك أو السيادة، أو التربية والإصلاح، وهى نسب إضافية لا غير ؛ إذ الواقع المشاهد لا يثبت للإنسان ملكاً حقيقياً، ولا سيادة من كل وجه، ولا تربية زائغة عن الإرشاد والتوجيه، ولا إصلاح ولا حكم بغير إنفاذ شرائع اللّه تعالى فى عباده، وإصلاحهم بها.

فطرية الإقرار بالربوبية:

وعقلاء الناس فى كل زمان ومكان يتحاشون دائماً أن ينسبوا شيئاً من صفات الربوبية لغير اللّه تعالى، الرب الحق الذى لا رب غيره، ولا إله سواه، وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية، وعجزهم عنها ؛ لأن المخلوق لا يخلق، والمملوك لا يملك.

ويكفى شاهداً على هذه الحقيقة اعترافُ مشركى العرب حين نزول القرآن وهم يدعون إلى عبادة اللّه تعالى وحده، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشىء من صفات الربوبية وحقائقها، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة، وتقديسهم لها، وتعظيمهم ؛ فإنهم كانوا لا يترددون فى الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلاً عن غيره من التماثيل والأصنام، للاتصاف بصفات الربوبية، فلم يكونوا ينتحلونَها لأفرادهم، ولا لآلهتهم، ولا يدعونها لهم بحال، وذلك لما وقر فى نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق، والرزق، والتدبير، والملك.

وقد سجل القرآن الكريم عجزهم واعترافهم فى غير آية منه، ومن ذلك قوله تعالى من سورة يونس: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** ﴾ (الآية: 31).

وقوله سبحانه من سورة الزخرف: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الآية: 9).

وقوله من سورة المؤمنون: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ (الآيتان: 86-87).

وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف: 87).

الإلحاد الشيوعي:

ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى، وهى أنه لم يعرف الإلحاد بإنكار الخالق عز وجل بين أجناس البشر قاطبة إلا فى القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعى الماركسى اللينينى المدمر، والذى نكبت به أوروبا وأنحاء كثيرة من العالم ؛ فإنه وإن كان هناك كفر باللّه تعالى، وشرك به بين الأمم والشعوب البشرية، غير أن الشعور الفطرى قائم فى كل نفس بالاعتراف بوجود سلطان غيبى هو سلطان اللّه تعالى، والناس يتوسلون إليه بشتى الوسائل استجلاباً للخير منه، ودفعاً للشر بواسطته. إن كل الآلهة التى أوجدها الإنسان باطلاً، وقدم لها مختلف العبادات، وتقرب إليها بشتى القُرب، الأصل فيها الشعور الفطرى بوجود اللّه، الخالق، المدبر للخلق، والكون معاً.

عوامل الإلحاد فى العالم:

إن العوامل التى ساعدت على انتشار الإلحاد فى العالم، ومكنت للمذهب الشيوعى الإلحادى المدمر فى أوروبا وغيرها قد تكون كثيرة، غير أن أهمها عندى وفى نظرى خمسة لا غير: وهى:

1 ـ ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية، واستذلالهم، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية.

2 ـ فساد الديانة النصرانية، وبطلانها، ومنافاتها للعقول، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية، الأمر الذى يسهل على الناس من أتباعها التنكر لها، والكفر بها بمجرد وجود من استطاع أن يفلت من زمامها، وينتقدها، ويبين خطأها.

3 ـ طفرة العلوم الكونية، والصناعية والآلية، طفرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذى حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتى باسم العلم ونظرياته، وإن كانت النظرية فرية ظاهرة معلوم كذبها، ومعروف كاذبها ؛ وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبدنية، ويصبح قابلاً لكل ما تمليه عليه، مستجيباً لكل ما تدعوه إليه، مصدقاً لكل ما تقوله وتخبر به.

4 ـ مَيل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ، ونفوره من القيود، والأنظمة التى تحد من ميوله، وتوجهَ غرائزه، لا سيما إذا وجد مُشجعاً على ذلك، مؤيداً له فى نزعته التحررية الإباحية، التحللية من كل القيود الأخلاقية، والالتزامات الدينية الشرعية.

5 ـ غيبة الحكم الإسلامى، وخفوت نور الإسلام، وتقلص ظل سلطانه الروحى، وانحسار مَدِّه الخيرى الذى كان يعطى البشرية فى شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة ؛ إذ الفترة التى ظهر فيها المذهب المادى الشيوعى كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار، نتيجة لكيد أعدائه له، وغفلة بنيه عنه، فوجد لذلك المذهب الإلحادى الجو خالياً للتضليل، والمغالطة، والفساد، فحكم على الأديان كلها بالبطلان، ونسب كل ضعف فى الناس إليها، وكفر بها وحاربها، ووجه نقده إليها بلا هوادة.

أما والله لو وجد الإسلام حاضراً ما غاب، فوجد اختراعاته، وتفوقه فى كل مجالات الحياة العلمية، من كونيه، وتقنية، وتشريعية، وروحية، ووجد عدله فى شعوبه، ورحمتهم فى الناس أجمعين، ووجد سعادته تغمر أهله، وتتعداهم إلى خصومهم وأعدائهم، لما أمكن المذهب الإلحادى أن يقول، فضلاً عن أن يجول أو يصول، ولكن الأمر كما قال القائل:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد

هذه خمسة عوامل، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادى المدمر الذى يجتاح العالم اليوم، وقد يحول البشرية إلى حيوانية من أحط ما تكون الحيوانية إن لم يعارض بسرعة، ويوقف عند حده.

وإنى لا أرى أن مذهباً فى العالم، أو قوة ستعارضه، وتوقفه عند حده فضلاً عن أن تبدده، وتقضى عليه، اللهم إلا أن يكون الإسلام، والإسلام وحده، إذا ما رزق دولة عظيمة، تؤمن به فى صدق، وتطبقه بحزم وعزم وتعطيه الحكم والقيادة، فإن هذه الدولة سوف تحل عقدة الإلحاد المستعصية وترى الناس زيف النظريات الإلحادية، وإدعاءاتها الباطلة ضد دين الله الحق.

أوروبا هى الضحية الأولى:

وبما أنّ أوروبا هى التى جرَّت هذه المحنة على العالم الإنسانى، فإنها ستكون قطعاً هى الضحية الأولى للإلحاد الشيوعى، وقد كانت فعلاً ـ وحتى لا نكون قد تجنينا عليها فى هذا فإنَّا نقول: إنه بعد أن ظهر الإسلام، وعرفت أوروبا فى الجملة صلاحيته لهداية البشر، وإعدادهم للحياة الفاضلة، وسعادة الدُّنيا والآخرة، بَدَلَ أن تعتنقه ديناً، وتحتضنه مبادئ خيرٍ، وسعادةٍ،

وإسعاد، قاومتهُ ووقفت فى طريق تقدُّمه وانتشاره، ومن العجيب أنها حاربته باسم الدِّين المسيحىِّ والنصرانيَّة كأنها لم تدر أنَّ الإسلام هو دينُ اللّه الحقَّ الذى أرسل به نبيَّه محمداً ﷺ إلى البشرية كافَّةً. وأما المسيحيَة فلم تكن سوى دين إقليمىٍّ محلىٍّ فقط ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولاً إلى غير بنى إسرائيل أبداً. فقد قال هو بنفسه: «لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة»(1). وقال عنه القرآن الكريم: ﴿ **وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ (الصف:6).

أما محمدٌ ﷺ فهو رسول اللّه إلى الناس كلهم أجمعين بدليل قوله هو ﷺ: «وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»(2). وقول الرَّب تعالى له: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ (الأعراف:158).

وقوله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ** ﴾ (سبأ:28).

وقوله: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ﴾ (الفرقان:1).

والأغرب من هذا أن اليهود الذين حاربوا السَّيدَ المسيح وألجأوا حواريه إلى رؤوس الجبال، والذهاب فى كلِّ منأى بعيد فراراً بدينهم، هم الذين وضعوا الديانة النصرانية الباطلة، التى حاربت أوروبا الإسلام من أجلها. إن اليهود يبدو أنهم لما رأوا مبادئ السيد المسيح تنتشر فى شرق أوروبا طاردوها، فتمسح من تمسح منهم خديعة وغشّاً حتى تمكن من العبث بالدين المسيحى وتحويله إلى دين وثنى يبرأ منه المسيح الذى قال فى مهده:

﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ** ﴾ (مريم:30). وقال وهو نبى ورسول: ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ (المائدة:72).

وليس أدل على ذلك من أن الإنجيل الواحد قد حُول إلى عدة أناجيل(3).

أقول: إنه بعد أن تجلى لأوروبا صلاحية الإسلام، وأنه رحمة اللّه العامة للناس أجمعين أبيضهم وأسودهم، ولم يكن دين العرب وحدهم، ولا دين الآسيويين دون الأفارقة، أو الأوروبيين ؛ بل هو دين البشرية كلها حيث كانت ووجدت.

---

(1) إنجيل «متى» الإصحاح (15) فقرة (24).

(2) رواه البخارى ومسلم مطولاً، اللؤلؤ والمرجان (1/ 104).

(3) بلغت الأناجيل بعد تحريفها خمساً وثلاثين إنجيلاً. ثم اختير منها خمسة أناجيل، وهى المتداولة الآن عند فرق النصارى فى أنحاء العالم.

أقول بعد أن ظهرت لأوروبا صلاحية الإسلام لهداية الناس أجمعين، بدل أن تقبل عليه، وتحتضنه وتسعد به، وتسعد الناس به أخذت تحاربه، وتحارب المؤمنين به، والمتبعين لمنهجه، فشنت حروباً صليبية لا هوادة فيها، وأخرى استعمارية لا رحمة فيها، وقضت بها على الخلافة الإسلامية بعد أن استعملت أسلوب اليهود فى المكر والدس والخديعة، لإفساد العقيدة الإسلامية، فتعاونت سراً وعلانية مع الزنادقة والباطنية، والمتصوفة والطريقيين، ومع سائر الفرق الإسلامية المنحرفة، الضالة، ممن يحسبون على الإسلام وهم أشد أعدائه فتكاً به، وإفساداً له، وقضاءً عليه.

وأخيراً:

وبعد أن قررت أوروبا التخلى عن مستعمراتها الإسلامية لعدم الجدوى لها فى بقائها فيها، صنعت على عينها وبيدها رجالاً من مستعمراتها ملء إهاب أحدهم عداوة للإسلام، وحنقاً عليه، وتقززاً منه، واستخفافاً به، وبمبادئه وشرائعه، وسلمتهم السلطة المحلية، وخرجت من الباب لتعود من النافذة، وتجلس على عرش قلوب أولئك الصنائع لتسخرهم عملاء لها، يواصلون نيابة عنها حربهم للإسلام وأهله، وكذلك كانوا وفعلوا حتى لم يبق من الإسلام إلا الاسم، ومن كتابه إلا الرسم.

وبناء على الحكمة القرآنية القائلة: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: 43). فإن أوروبا ستذوق فى يوم من الأيام أقسى محنة، وستتجرع أعظم غصة، نتيجة جريمتها على الإسلام دين اللّه الذى هو دينها، ولا دين لها على الحق سواه، وما ظلمها اللّه فيما سيصيبها به، ولكن كانت هى الظالمة.

* * *

شرك الربوبية
ومظاهره في الأمة الإسلامية

قد يبدو غريباً جداً ـ بعد أن قدمنا أن مشركي العرب أيام البعثة المحمدية لم يكونوا يشركون في ربوبية اللّه تعالى أحداً من خلقه ـ اعترافنا بوجود مظاهر لشرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم، غير أن هذا الاستغراب سيزول بمجرد وقوف المرء على مظاهر الشرك واضحة جلية في شتى مجالات حياة كثير من المسلمين.

وهنا بيان مقتضب لتلك المظاهر الشركية في بعض أفراد الأمة الإسلامية نذكرها تحذيراً منها، وتعليماً بأن عقيدة المؤمنين الحقة خلو من كل مظاهر الشرك، وآثاره، لابتنائها على هدى الكتاب والسنة، كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ.

1 ـ اعتقاد كثير من عوام المسلمين وأشباههم أن هناك في الكون أقطاباً، وأبدالاً من الأولياء والصالحين لهم قدر من التصرف معين في حياة الناس ؛ فهم يولون ويعزلون، ويعطون ويمنعون، ويضرون وينفعون، كما شاع بين عوام المسلمين أن لهؤلاء الأقطاب والأبدال ديواناً يطلق عليه ديوان الصالحين، منه تصدر القرارات والمراسيم بربح فلان ونجاحه، وخيبة فلان وخسرانه.

ومن هنا تعلقت قلوب كثير من الناس بالصالحين، وهتفت بهم الألسنة، واستغيث بهم، ودعوا عند الشدائد، ونودوا للخلاص من المحن، وهو مظهر واضح للشرك في الربوبية، لما فيه من اعتقاد التصرف والتدبير في الكون لغير اللّه تعالى، أو له ولغيره معه سبحانه وتعالى.

2 ـ اعتقاد كثير من المنتسبين إلى العلم أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بعد موتهم، وشاع هذا الاعتقاد الكاذب الباطل، ورسخ في نفوس كثير من المسلمين حتى أصبحت الأضرحة والمشاهد والقبور ملاذاً لكل خائف، ومستشفى لكل مريض. فمن أصابه كرب، أو نزل به ضيم، أو حلت به نكبة، فزع إلى تلك الأضرحة، والمشاهد، والقبور، وأناخ بساحتها، وتعلق بأهداب أصحابها، راجياً منها تفريج كربه، وقضاء حاجته !

فكم من مريض نقل إلى تلك الأضرحة، وذهب به إليها، وكم من ذي عاهة، أو صاحب حاجة قد أمّها، وقصدها، ونزل بساحتها، وكله رجاء وطمع في أصحابها، حتى شاع بين العوام قول: «إذا تعسرت الأمور، عليكم بأصحاب القبور» فيأتونهم للاستعانة بهم، والدعاء عندهم. ومثل هذا لا يشك عاقل من المؤمنين في أنه شرك ظاهر ؛ لما فيه من اعتقاد أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بالعطاء والمنع، والضر والنفع.

وهذا من خصائص الربوبية ؛ إذ هو من التدبير للخلق الذى اختص به الرب تبارك وتعالى.

3 ـ الرهبة من الجن والخوف منهم، والاستغاثة بهم، وتقديم القرابين لهم، كالتى تذبح على حافات الآبار عند حفرها، وعلى أعتاب المنازل عند إتمام بنائها، وإرادة السكن بها، وكالتى تذبح عند انتشار الأوبئة، والأمراض المعدية. كل هذا موجود بين جهال المسلمين وهو شرك ظاهر فى ربوبية الله تعالى ؛ إذ الحامل عليه اعتقاد أن الجن لهم تصرفات خارجة عن إرادة الله تعالى وتدبيره.

وهذا مما ألقاه الشيطان فى قلوب أوليائه من الإنس فعملوا به، وأشاعوه، ونشروه حتى أصبح عقيدة فى نفوس الجهال من المسلمين.

وهو إشراك لشياطين الجن فى ربوبية الله تعالى، وإيمان بهم والعياذ بالله تعالى.

4 ـ تقديس المشايخ من رجال التصوف والطرقيين، والمشعوذين، وطاعتهم فى غير طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، بل فيما هو مكروه لله ورسوله ﷺ ، وقبول ما يشرعون لهم من البدع، وما يسنون لهم من سنن الباطل، واتباعهم فى ترك سنن الهدى، ومعاداتها، ومعاداة أهلها، والداعين إليها، والاستجابة المطلقة لهم بحيث يمكنونهم من نفوسهم فيتسلطوا عليها، ومن أرواحهم فيهيمنوا عليها، فاعتقدوا فيهم أنهم يعلمون سرهم ونجواهم وأنهم يكاشفونهم فى كل أحوالهم، ويطلعون منهم على كل مخبآت نفوسهم، فذلوا لهم، وهانوا، وضعفوا أمامهم، واستكانوا لهم حتى مكنوهم من أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم.

فهل هذا الخضوع، والذل، والطاعة المطلقة، والتسليم التام لهم لا يُعد شركاً فى ربوبية الله تعالى، وهل أولئك الرجال الذين استعبدوهم لا يعدون أرباباً وآلهة لهم ؟!

5 ـ الخنوع للحكام غير المسلمين، والخضوع التام لهم، وطاعتهم بدون إكراه منهم لهم، حيث حكموهم بالباطل، وساسوهم بقوانين الكفر والكافرين، فأحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فى كل ذلك، ولم ينكروا عليهم، ولم يرفضوا لهم.

إن الاتصاف بهذا الذى ذكرنا، والقيام عليه، والرضا به، والاقتناع بصحته شرك ظاهر فى ربوبية الله تعالى؛ لأن الطاعة فى معصية الله تعالى بدون إكراه عليها كفر بصاحبها، ويشهد لهذا ويصححه حديث عدى بن حاتم الطائى الذى كان قد تنصر فى الجاهلية، ثم أسلم، وسمع الرسول ﷺ يقرأ قول الله تعالى فى شأن أهل الكتاب: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة:31). فَأَنْكَرَ عَدِىٌّ أَنْ يَكُونوا عَبَدُوهُمْ، فَقَالَ لَهُ الرسول ﷺ : «**أليسوا يحلون لكم الحرام**

فتحلونه ؟ ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه ؟ فقال: بلى. قال النبى ﷺ : فتلك عبادتهم»
(رواه أحمد والترمذى وحسنه).

وأخيراً: فتلك بعض مظاهر شرك الربوبية فى الأمة الإسلامية اليوم، وإن تساءلنا عن أسبابها فإنا لا نجدُ بُداً من القول بأنها كانت نتيجةَ جَهْلِ الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها، وذلك لبعدها عن دراستهما، والعمل بهما زمناً غير قصير، مع مَا دسه عليها خصومُ إسلامها، الحانقين عليها والنَّاقمين منها، مما أفسد عقيدتها، وبَعُدَ بها كل البعد عن مركز القوة وهو العلم والإيمان.

توحيد الألوهية

إن توحيد الألوهية ـ العبادة ـ جزء هام من عقيدة المؤمن ؛ إذ هو ثمرة توحيد الربوبية، والأسماء والصفات، وجَنَاهُ الطَّيِّبُ، وبدونه يفقد توحيد الرُّبوبية، والأسماء والصفات معناه، وتنعدم فائدته.

إن توحيد الربوبية يدور على المعرفة باللّه وربوبيته ونفى الشريك له فى ذلك، كما أن توحيد الأسماء والصفات يدور على إثبات أسماء اللّه تعالى وصفاته، ونفى الشريك فى الأسماء، وعدم التمثيل، والتأويل، والتعطيل فى الصفات.

وأما توحيد الألوهية: فهو إفراد اللّه تعالى بالعبادة المستلزم لعبادة اللّه تعالى بكل ما شرع أن يُعبدَ به من أعمال القلوب والجوارح، وأن لا يشرك معه غيره فى شىء منها، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى. وهو أيضاً ـ توحيدُ الألوهيَّة ـ تعلق القلب بالرب تعالى خوفاً ورجاءً، ورهبة وطمعاً، كما هو إسلام الوجه لله تعالى، ووقف الحياة كلها عليه، فلا شىء للعبد هو لغير اللّه تعالى، بدليل قول اللّه تعالى من سورة الأنعام: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (الآيتان: 162، 163).

بهذا أُمر رسول اللّه ﷺ أن يقول ويجاهر به، وبمثله أمر إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:78، 79).

إن لهذا التوحيد ـ توحيد الألوهيَّة ـ شأناً وخطراً، وينبئ عن ذلك أنَّ كافَّةَ الرُّسل الذين بعث اللّه تعالى بهم إلى الأمم والشعوب كان كل واحد منهم يبدأ دعوته حينما يبدؤها بقوله: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ سورة الأعراف الآيات (59، 65، 73، 85) وسورة هود الآيات (50، 61، 84).

وهو مضمون كلمة «لا إله إلا اللّه» التى جاء بها خاتم النبيين والرُّسل محمد ﷺ، ودعا إلى قولها واعتقادها، ولم يطالب بغيرها طيلَة عشر من السنين، ومن أجلها عُودىَ، وأوذىَ، وحُورب، كما عودى، وأوذى، وحورب، كلُّ من دعا إليها من جميع الرسل وأتباعهم، وذلك لأنَّ قولها واعتقادها يستلزم الكفر الكامل بكلِّ ما عبد الناس من آلهة دون اللّه سبحانه وتعالى، وعرفوها بعد فَقدهم لهداية اللّه تعالى بموت الأنبياء، وانقراض أهل العلم العارفين باللّه تعالى وشرائعه فيهم، يُضَافُ إلى ذَلك أنَّ كلمة التَّوحيد: «لا إله إلا اللّه» تقتضى بل وتوجب المساواةَ بين الناس فى الحقوق والواجبات، فلم يبق بين النَاس من يتميز عنهم ميزةً يستعلى بها عليهم فيترفعُ ويتكَبرُ، أو يستعبد الناس أو يتحكم فيهم، أو يحكمهم بغيرِ شرع ربهم، كما جاء مضمون ذلك فى كتاب رسول اللّه، إلى هرَقْلَ ملك الروم.

ونصه بعد البسملة والديباجة: «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلا اللّه، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه» (أخرجه البخارى: 1/ 97، 4/ 54 ـ 57).

ومن هنا كانت الخصومات تبلغ أشدها بين الرُّسل وأممهم، لما تدل عليه عبادةُ اللّه تعالى وحده من الكفر بكلّ معبود سوى اللّه تعالى، وترك عبادته، والبراءة منه. كما قال تعالى فى كتابه من سورة المجادلة: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾ (الآية: 22).

وكما أخبر تعالى عن خليله إبراهيم والمؤمنين معه وهو يدعونا إلى الاقتداء بهم فى الوقوف ضد الشرك والمشركين ـ حيث يقول تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ (الممتحنة:4).

إنَّ مدلولَ كلمة «لا إله إلا اللّه»: الإيمان باللّه وحده بأن يُعبدَ ولا يُشركَ به شيءٌ من خلقه. والكفرُ بكل طاغوت صارف عن عبادة اللّه تعالى، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ (النحل:36).

والطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، أو صرف عن عبادة الله تعالى من معبود رضى لنفسه بأن يُعبد مع الله تعالى، أو متبوع، أو مطاع فى غير طاعة الله ورسوله ﷺ .

هذا ولكى نوفى توحيد الألوهية ما يستحق من البيان والتوضيح لخطورة شأنه، فإنه لابد من شىء من التفصيل والتطويل. فنقول إن توحيد الألوهية أو العبادة، له طرفان وواسطة:

فالطرف الأول: مخلوق ضعيف محتاج لا يبرح دهره باحثاً عمَّا يقوى ضعفه، ويجلب له ما ينفعه، ويدفع عنه ما يضره، وهذا المخلوق الضعيف المحتاج هو الإنسان.

والطرف الثاني: هو ربٌّ قويٌّ غنيٌّ، سميع عليم، عزيز حكيم، وهو الله المعبود بحق سبحانه وتعالى.

والواسطة: هي أقوال وأعمالٌ واعتقادات يحبها الله تعالى ويرضاها، وهي العبادة التي يقوم بها العبد طاعة لله تعالى وتقرباً إليه. وبناءً على أنَّ توحيد العبادة هو إفراد لله تعالى بالعبادة التي هي جميع ما أحب اللّه تعالى أن يُعبد به من أعمال القلوب والجوارح، كما سبق بيانه وعلى ضوء هذا التعريف يتقرَّر ما يلي:

(1) الإنسان بحكم الضعف المتأصل فيه، وافتقاره اللازم له، لا يخرج عن وصف العبودية بحال من الأحوال، ولذا فإنه لم يُرَ في جميع أطواره التاريخية، وعصوره البشرية إلاَّ عابداً لا ينفكُّ عن العبادة، إما لله تعالى متى عرفه، وآمن به رباً وإلهاً، أو لغيره من شتى الكائنات التي يتصور فيها القدرة الكافية على جلب الخير له، ودفع الشر عنه، عندما يجهل ربه، ولا يؤمنُ به إلهاً ومعبوداً، لعامل اقتضى ذلك منه.

(2) لا يصح عقلاً ولا شرعاً أن يُعبد غير اللّه تعالى، ولا تنبغي العبادة إلا له سبحانه وتعالى، وذلك لأنه لا يوجد في الكون قويٌّ غنيٌّ، سميع عليم، عزيز حكيم، قوته وغناه، وسمعه وعلمه، وعزته وحكمته ذاتية له ليست مستمدة له من ذات أخرى إلا اللّه سبحانه وتعالى، ونوضح هذا المعنى فنقول: إن الإنسان وهو سيد هذه المخلوقات، وأشرفها وأفضلها على الإطلاق جميع كمالاته الخَلقية والخُلقية، أو الجسمانية والروحية ليست ذاتية له، بل هي موهوبة له من خالقه ذي الجلال والكمال المطلق لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ودليل كون الإنسان كل كمالاته موهوبة له، وليست ذاتية له، أنهُ يخلق يوم يخلق فاقداً لها، ثم توهب له، ولبعض أفراده دون بعض، ومن وهب منهم ذلك قد يُسلبه أحياناً، فقد يُرى الإنسان عاقلاً، ثم يصير أحمق، وقد يكون قادراً ثم يعجز، ويكون غنياً، ثم يفتقر. فدل ذلك على أنَ كمال الإنسان ليس ذاتياً له، وإنما هو موهوب له ؛ فهو لذلك لا يبرح عبداً ضعيفاً مفتقراً إلى واهبه كماله، وَهو اللّه سبحانه وتعالى. أما الرب تبارك وتعالى فإن كماله ذاتيٌّ له. وبهذا يتقرر أن العبادة لا تصح إلا لله، ولا تنبغي لأحد سواه.

(3) إن العبادة لا تكون قُربة لله تعالى ووسيلة إليه ينتفع بها العبد فاعلها إلا إذا توفر لها: العلم بها، ومعرفة كيفية أدائها، وإفراد اللّه تعالى بها فلذا لا تتصور في الذهن عبادة نافعة إلا من ذي علم وإيمان. فالعلم يحصل للمرء بالإيمان بكتاب اللّه تعالى. وبقراءته ومعرفة ما جاء فيه ومعرفة كيفية أداء العبادة يتم بالإيمان بالرسول ﷺ، وبمعرفة سنته، واتباعه فيها، وإفراد اللّه تعالى بالعبادة يثبت للعبد بمعرفة الشرك وتجنبه، ولهذا يتحتم أن نختم هذا البحث المتعلق بتوحيد الألوهية بفصل ضاف نبين فيه الشرك في

العبادة، ومظاهره اليوم فى الأمة الإسلامية ؛ ليكون القارئ المؤمن على بصيرة فى عقيدته، وتلك هى الغاية التى توخيناها فى وضع هذه الرسالة «عقيدة المؤمن»، والله ولى الأمر والتوفيق.

الشرك فى الألوهية
ومظاهره فى الأمة الإسلامية

تعريفه:

الشرك لغة: الاسم من شركه فى كذا يشركه شركاً وشركة، كأشركه فكذا يشركه فيه إذا جعل له نصيباً قليلاً أو كثيراً فى ذات، أو معنى، ومثله شاركه فىَ كذا يشاركه فيه: كان شريكاً له فيه بقدر كبير أو صغير فى ذات، أو وصف، وهو ـ الشرك ـ شرعاً: ضد التوحيد كالكفر ضد الإيمان.

والشرك فى ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته كفر، وفى عبادته تعالى إن كان الفاعل له عالماً به مصراً عليه كفر كذلك ؛ إذ الشرك فى ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى، وكذب عليه عز وجل، وفى عباداته تعالى تأليه لغيره سبحانه وتعالى، وتأليه غير الله تعالى كفر، وتكذيب لله تعالى فى قوله: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ (آل عمران: 18).

وفى قوله: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (محمد: 19).

وتكذيب الله تعالى كفر بلا شك.

ويختلف الشرك مع الكفر فى أن من الشرك ما لا يكون كفراً، وذلك كالشرك الأصغر، والشرك الخفى، لخبر الرسول ﷺ فى ذلك وسماعه من بعض أصحابه، ولم يعتبر فاعله كافراً، ولم يحكم بردته، من ذلك قوله ﷺ : «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: **وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: الرياء**»[1] وقوله لمن قال له: ما شاء الله، وشئت: «**أجعلتنى لله نداً ؟ قل: ما شاء الله وحده**»[2]، والندُّ: الشريك. وقوله لأصحابه لما قالوا: قُومُوا بنا نَسْتَغيثُ برسول الله ﷺ منْ هذا المنَافق: «**إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله**»[3] وقوله ﷺ : «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»[4]. وقوله ﷺ : «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب

(1) رواه أحمد بإسناد جيد، وتمام الحديث: «يقول الله تعالى إذا جزى الناس بأعمالهم: **اذهبوا إلى الذين كنتم تراقبون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء؟**» المسند (5/ 428/ 429).

(2) رواه أحمد بلفظ: «**أجعلتنى والله عدلاً..**» (1/ 214، 224، 283، 347)، وانظر الفتح الربانى (1/ 38)، وروى ما يدل على معناه فى الدارمى وابن ماجه وكذا أحمد (5/ 72، 393)، والفتح الربانى (1/ 27، 28).

(3) رواه أحمد (5/ 317)، والطبرانى بسند لا بأس به، وروى مسلم هذا اللفظ «**من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه**» وهذا الحديث قدسى (8/ 223).

(4) رواه الترمذى (نذور/ 9) وحسنه، والحاكم.

النمل» فقيل له: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول اللّه ؟ قال: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**».(1)

ولم يحكم ﷺ فى كل هذا بردة فاعله، ولا بتكفيره، ومن أجل هذا قيدنا الكفر فى شرك العبادة بكون فاعله عالماً به أنه شركٌ، وأصر عليه عناداً ومكابرة، وإيثاراً للمنافع الدنيوية من مال، أو جاه، أو سلطان. ولكى يتضح الموضوع أكثر يحسن أن نذكر هنا جملاً من الكلام على ذات اللّه وصفاته، وأفعاله، وعباداته مبينين كيف يكون التوحيد، وكيف يكون الشرك والكفر فيها.

(أ) الذات المقدسة:

إن الكلام على ذات الرب تبارك وتعالى معناه تقرير حرمة التفكر فيها، ومحاولة إدراك كنهها، ومعرفة حقيقتها، لما ثبت شرعاً من النهى عن ذلك، ولاستحالة إدراك ذات اللّه تعالى عقلاً ؛ لأن اللّه تبارك وتعالى ليس كمثله شىء، ولم يكن له كفواً أحد، ولا تدركه الأبصار. ولا تكتنه كنهه العقول. إن مدى ما تصل إليه العقول، وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها، والرب تبارك وتعالى ليس منها ؛ لأن المادة شىء معلوم التكوين، واللّه ليس كمثله شىء، والمادة المعروفة لدى الإنسان، وهو الخالق لها سبحانه وتعالى، والخالق لا يكون جزءاً من مخلوقه، كما لا يكون شبيهاً له بحال من الأحوال. ولهذا كانت عقيدة المؤمن فى ذات اللّه تعالى أنها ذات مقدسة لا تشبه الذوات، وأنها موصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات، وأن اللّه تعالى سمى نفسه بأسماء حسنى، ووصف نفسه بصفات عليا، وأمرنا أن نناديه بأسمائه، وندعوه، ونتوسل إليه بها وبصفاته العليا فقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ (الأعراف:180).

فنحن نناديه، وندعوه بها، ونتوسل إليه بصفاته العليا، فيسمعنا، ويستجيب لنا.

هذه عقيدة المؤمن فى ذات اللّه تعالى فمن شبَّه ذات اللّه تعالى بذات المخلوقين، أو ادعى إدراك كنهها، ومعرفة حقيقتها، أو تكلم فيها بما لا علم له من كتاب اللّه، وسنة رسوله ﷺ ؛ فقد كفر وأشرك.

(ب) صفات الله تعالى وأسماؤه:

إن اللّه تبارك وتعالى وصف نفسه فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بصفات عليا، وتعبد المؤمنين بالإيمان بها، وبوصفه بها توسلاً إليه وتقرباً، وسمى نفسه تعالى بأسماء حسنى، فوجب الإيمان بذلك وقبوله، وإطلاقه عليه تعالى على ما هو مراده منه، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه، وسماها به من أسماء فقد كفر، ومن شبَّه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك، إذ

---

(1) رواه أحمد (4/ 403) وكذلك الطبرانى.

هو يتردد فى ذلك بين تكذيب اللّه تعالى والكذب عليه، وكليهما كفر شنيع وظلم عظيم!

ومن أوَّلَ تلك الصفات الإلهية العليا رائماً[1] تنزيهه تعالى، فقد أخطأ، وجهل، وتكلف ما لم يُكلف به، وفعل ما لم يؤمر به. ذلكَ كتأويل يد اللّه بقدرته فراراً من وصف اللّه تعالى بلفظ اليد، وكتأويل مجيئه تعالى لفصل القضاء بمجيء أمره، أو ملك من ملائكته فراراً من وصف اللّه تعالى بالتحول والانتقال الذى تبادر إلى أذهان المؤولين. وكتأويل استوائه تعالى على العرش بالاستيلاء فراراً من وصف اللّه تعالى بالاستواء على عرشه. وكتأويل صفة العلو بالقهر فراراً من وصف الجهة والتحيز، إلى غير ذلك من التأويل الذى عُرف به أكثر علماء الخلف، ولم يعرف به أحد من علماء السلف.

وبيان ذلك:

أولاً: أن المؤول لم يرض لله تعالى ما رضيه له أعرف الناس به وهو رسوله ﷺ .

ثانياً: أن هذا التأويل لو أراده تعالى لنفسه لأمر به فى كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ ولكان حينئذ التأويل لصفات اللّه تعالى واجباً دينياً يحرم إهماله، ويأثم تاركه. غير أنه لما لم يأذن اللّه تعالى به كان فعله خطأ وتكلفاً مذموماً محرماً، لما فيه من معنى الاستدراك على اللّه تعالى وعلى رسوله ﷺ .

ثالثاً: أن المؤول لصفات اللّه تعالى فراراً من التشبيه، وخوفاً منه قد جهل حقيقة عظيمة هى استحالة وجود أى شبه بين صفات اللّه تعالى وصفات عباده ؛ إذ لا شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق أبداً، لما أخبر تعالى من أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، وأنه أحد، ولا كفؤ له، ولهذا لو قال أحد: يد اللّه كيد زيد أو عمرو، ومجيء الرب تعالى كمجيء خالد أو بكر، واستواء اللّه على العرش كاستواء الملك فلان أو فلان لكان مشبهاً للخالق بالمخلوق، وهو فى ذلك كاذب ؛ إذ الواقع يختلف عما قال تماماً، ومكذب لأنه كذب اللّه تعالى فى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:11).

ومشرك كافر، لتشريك بعض عباد اللّه فى بعض صفات اللّه تعالى .

رابعاً: أن هذا المؤوِّل لصفات اللّه تعالى فراراً من التشبيه، وخوفاً منه قد خفى عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق جل وعلا، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء، إنه لو علم أن الفرق بين صفات الخالق وبين صفات المخلوق، كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، لما توهم تشبيهاً، ولما لجأ إلى التأويل، فلهذا لنا أن نقول: إن المؤول لصفات اللّه تعالى خوفاً من الوقوع فى التشبيه، قد فهم أنه يوجد شبه ما بين صفات الخالق عز وجل وصفات المخلوق فلهذا هرب منه

---

(1) رائماً: أى طالباً.

فأوَّل صفات الخالق حتى لا تشبه صفات المخلوق، أما غير المؤول فإنه لم يسمح لخاطره أن يقدر أى شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، لاستحالة وجود أى شبه بها واقعاً فأطلق صفات الخالق عليه، كما أطلقها على نفسه، وأطلق صفات المخلوق عليه، كما أطلقت عليه شرعاً، وعادة، وعرفاً، وبذلك سلم من الخطأ، والتكلف، والجهل، وبالتالى من الشرك والكفر.

(جـ) عباداته تعالى:

قبل بيان عبادات اللّه تعالى، وكيف يُوحد اللّه تعالى فيها نذكر أن اللّه تعالى لم يخلق الثقلين الإنس والجن فى هذا العالم الأرضى إلا لعبادته بذكره، وشكره، وحسن عبادته، دل على هذا قوله عز وجل فى كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: 56 ـ 58).

ولبيان أنواع العبادات، وكيف يُعبد بها أنزل الكتب، وبعث الرسل فكانت بذلك عبادات اللّه توقيفية لا تعلم إلا من طريق الوحى: الكتاب والسنة، وكان من عبد اللّه تعالى بغير ما شرع لعباده أن يعبدوه به غير عابد لله وإنما هو عابد لهواه، أو للشيطان الذى أغواه، ومن عبد اللّه بما شرع لعباده أن يعبدوه به لكنه أشرك فيه غيره من مخلوقاته؛ فقد أشرك وكفر، والسؤال الآن هو: ما هى العبادات التى شرعها اللّه تعالى لعباده ليعبدوه بها، ولا يشركوا معه غيره فيها ؟

والجواب: أنها موجودة فى الكتاب والسنة، مودعة فيهما، فمنهما تُطلب وبهما تعرف، وها نحن نذكر جملة كافية من أنواع العبادات مبينين وجه كل من التوحيد والشرك فيها توضيحاً لعقيدة المؤمن، واستكمالاً للبحث فيها مبتدئين بالعبادات التى هى من أعمال القلوب منتهين بالعبادات التى هى من أعمال الجوارح.

(أ) أعمال القلوب:

إن المراد من أعمال القلوب هو العبادات التى يقوم بها قلب العبد، وذلك كالإيمان، والمحبة والخوف والخشية، والرجاء، والرغبة، والإنابة، والتوكل، وهذا بيانها مفصلاً:

(١) **الإيمان**: وهو تصديق القلب بوجود اللّه تعالى، وربوبيته لكل شىء، وألوهيته للأولين والآخرين مع التصديق بكل ما أمر اللّه تعالى بالإيمان به واعتقاده، من الملائكة، والكتب، والرسل، والمعاد، والجزاء، والنعيم، والشقاء، والقدر والقضاء، لأمر اللّه تعالى بذلك فى قوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا﴾ (النساء: 136).

وبناء على هذا فإن عبداً يعترف بربوبية لغير الله تعالى، أو بألوهية لسواه عز وجل فقد كفر وأشرك.

(٢) المحبة: وهى حبُّ الله تعالى وحب كل من يحب من عباده، وما يحب من عقائد عباده، وأقوالهم وأعمالهم، وذلك لقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ (البقرة: 165).

وقوله: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (آل عمران: 31).

وقول الرسول ﷺ: «**اللهم ارزقنى حبك، وحب من ينفعنى حبه عندك، اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب**»(1)، وعليه فمن أحب الله تعالى، وأحب من يحب من عباده، وما يحب من اعتقاداتهم، وأقوالهم وأفعالهم، ولم يشرك فى هذا الحب أحداً فقد وحد الله تعالى فى هذه العبادة، ومن أحب غير الله تعالى حباً لم يأذن فيه الله تعالى، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه، أو حرمه كحب ما يُعبد من دون الله تعالى، وحُبِّ الرؤساء، وحب الدنيا حباً يجعل المحب على طاعة المحبوب فى معصية الله تعالى، ومعصية رسوله ﷺ، وعلى تعظيمه، وإجلاله، وإكباره، والذلة له والخضوع، والخنوع، فمن أحب بهذا الحب غير الله تعالى فقد أشرك فى عبادة الله تعالى التى هى حب الله والحب لأجل الله تعالى.

(٣) الخشية والخوف (2):

إن خشية الله تعالى، والخوف منه عز وجل مما تعبد الله به عباده المؤمنين، فقد أمر بخشيته، ونهى عن خشية غيره فى قوله تعالى: ﴿ **فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ (المائدة: 44).

كما أمر بالخوف منه ونهى عن خوف غيره فى قوله: ﴿ **فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران: 175).

وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ (الملك: 12).

فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلبية يجب أن يُفرد بهما الله عز وجل، وتختص به، فمن خاف غير الله تعالى، أو خشيه معظماً له، مستكيناً، يذل له ويطيعه فى معصية الله تعالى، وهو غير مكره له على تلك الطاعة فقد أشرك بالله فى هذه العبادة.

---

(1) رواه الترمذى بسند حسن، فى كتاب الدعوات (73).

(2) الفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تكون مع تعظيم المخشى منه، والخوف يكون بدون تعظيم المخوف منه.

(٤) الرجاء والرغبة:

الرجاء هو الأمل فى الخير، وترقُّب حصوله، وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمله فيه ورجاءه منه، والرغبة: حب الخير وإرادته، والطمع فى تحصيله ممن يملكه، ويقدر على إعطائه وهبته، فهى مثل الرجاء، وكلاهما مما تعبد اللّه تعالى به المؤمنين حيث قال تعالى فى كتابه العزيز من سورة الكهف: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ (الآية: 110).

وقال تعالى: ﴿ **لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ (الأحزاب: 21).

وقال: ﴿ **وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ (الأنبياء: 90).

وأمر رسوله ﷺ بالرغبة إليه تعالى فى قوله: ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴾ (الشرح: 7،8).

ولما كان الخير كله بيد اللّه، وليس بيد أحد سواه، وكان اللّه وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (آل عمران: 26).

كان رجاء الخير ورغبته من غير اللّه تعالى ضلالاً وباطلاً، وكان فاعله مشركاً فى هذه العبادة القلبية غيرَ ربه عز وجل.

(٥) الإنابة:

الإنابة وهى الإقبال على اللّه تعالى، والتوبة إليه. والإنابة عبادةٌ أمر اللّه تعالى بها فى قوله: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ** ﴾ (الزمر: 54).

وأخبر أنه يهدى إليه من ينيب، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه، جاء ذلك كله فى كتابه القرآن الكريم.

ولما لم يكن فى الخلق كله من يعطى، أو يمنع، أو يضر، أو ينفع إلا بإذن اللّه، ولا من يُسعد أو يُشقى إلا اللّه سبحانه وتعالى كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى غير اللّه تعالى رغبة أو رهبة، خوفاً أو طمعاً، وكانت الإنابة إلى غير اللّه عز وجل باطلاً وشركاً، وكان من أناب إلى غير اللّه تعالى تائباً إليه ـ أى إلى ذلك الغير ـ راجياً الخير منه، خائفاً من سخطه أو عقابه فقد أشرك.

٦ - التوكل:

التوكل وهو الاستسلام لله تعالى، وتفويض الأمر إليه، اعتماداً ووثوقاً به، أمر اللّه تعالى به فى غير آية من كتابه، وجعله آية الإيمان وعلامته، فقال تعالى: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ (الأحزاب: 48).

وقال: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (المائدة: 23).

وواعد بالكفاية للمتوكلين عليه في قوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق:3).

وخص التوكل به فقال: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (إبراهيم:12).

فالتوكل إذاً عبادة قلبية وهو سكون القلب إلى كفاية اللّه تعالى، وتفويض الأمور إلى اللّه تعالى لكفايته، والاعتماد عليه تعالى لعلمه وقدرته.

ولما كان لا كافي إلا اللّه، ولا قادر على كل شيء سواه، ولا عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير اللّه تعالى باطلاً وشركاً، وكان المتوكل على غير اللّه تعالى سكوناً، ووثوقاً، واعتماداً مشركاً.

(ب) أعمال الجوارح:

إن ما تقوم به الجوارح من العبادات والطاعات كثير جداً، فلذا نكتفي بذكر طرف منه فقط، تذكيراً وتعليماً، وبخاصة ما وقع فيه الشرك بين المسلمين، ومن ذلك:

١ ـ الدعاء:

الدعاء هو سؤال الرغائب، وطلب الحاجات في جلب نفع، أو دفع ضرٍّ ممن يملك ويقدر. والدعاء من أعظم مظاهر العبادة، وأوضح صورة من صورها حتى قيل فيه: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العبَادَة**» «**والدعَاءُ هُو العبَادَة**»(1)، ومن هنا كانت العبادة بدونه ليست شيئاً، أو لا تستقيم ولا تتم إلا به، وهو كذلك؛ إذ في الدعاء الذل للمدعُو، والافتقار إليه، والاستكانة له، وتعظيمه، واستشعاره غناءه، وإحاطة علمه بالداعي، وقدرته على إعطائه ما سأله فيه مع تمجيده، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته، إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التي لا توجد واضحة بهذه الصورة إلا في الدعاء، وحال السجود، ولذا كان الدعاء في السجود مُستجاباً، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه.

ولما كان تحقيق الرغائب، وقضاء الحاجات أمراً يتوقف حصوله على أن يكون المدعو لذلك، المسؤول فيه مالكاً لجميع الرغائب وكل الحاجات، قادراً على تحقيق الرغبة وقضاء الحاجة، عالماً بحال السائل الداعي الراغب، يسمع كلامه، ويرى مكانه، ولما لم تكن هذه الصفات لتتوفر لأحد سوى اللّه عز وجل بطل أن يُدْعَى غير اللّه تعالى عقلاً وشرعاً، قال تعالى من سورة الجن: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (الآية:18).

---

(1) حديث حسن رواه الترمذي في تفسير سورة البقرة (2969)، وأبو داود في (1/ 341)، وهو صحيح، وكذا لفظ: «**الدعاء مخ العبادة**» رواه الترمذي، وسنده ضعيف.

وبهذا كان دعاء غير اللّه، وسواء كان المدعو نبياً أو ولياً ـ شركاً محرماً، وكان من يدعو غير اللّه تعالى من عباده مشركاً كافراً ظالماً جاهلاً، أو معانداً مكابراً.

٢ ـ الاستغاثة:

الاستغاثة هى طلب الغوث والغياث، وهو ما يغاث به المضطر، ويعان به من طعام، أو شراب، أو نصر وتأييد، أو خلاص من شدة وإنقاذ من محنة.

وهى أى الاستغاثة من جنس الدعاء، فمن لا يُدعى لفقره وعدم قدرته وجهله بحال الداعى، وعدم سماع دعائه، وعدم معرفة مكانه وحاله، لا يستغاث به كذلك.

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثته ممن لا يسمع كلامه، ولا يرى مكانه، ولا يعرف حاله من حى غائب بعيد، لا يرى المستغيثَ، ولا يسمع استغاثته، أو ميت انقطع عمله من الدنيا، سواء كان نبياً من الأنبياء أو صالحاً من الصالحين، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى، وكان بذلك مشركاً كافراً، وليعلم المؤمن هنا أن سؤال الحى من الناس واستغاثته ـ أى طلب الغوث منه ـ إذا كان قادراً على العطاء والغوث، وكان قريباً من الداعى المستغيث يسمع كلامه ويرى مكانه، قد أذن اللّه فيه، وأباحه لعباده، ولم يجعله عبادة تخصه، يحرم إشراك غيره فيها. وهذا معلوم من الدين بالضرورة.

٣ ـ الاستعانة:

الاستعانة هى طلب العون والمعونة على قضاء حاجة، أو خروج من محنة، وهى من نوع الدعاء والاستغاثة، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإعانة، ولا من ميت لا يسمع المستعين به، ولا يرى مكانه، ولا يعرف عن حاجته وحاله ولا من غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء، ورؤية الداعى وإعانته على ما هو فى حاجة إلى المعونة فيه، وقد أرشد اللّه تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون من سواه فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 5).

وأوصى رسول اللّه ﷺ عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما أن يستعين باللّه دون سواه فى قوله: «**إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه**»(1).

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم، أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم، وانقطاعهم عن الحياة، كان ضلالاً وباطلاً، وكان فاعله مشركاً باللّه تعالى فى هذه العبادة من عبادات اللّه التى لا تنبغى لأحد سواه.

---

(1) رواه الترمذى وصححه فى كتاب القيامة (59).

٤ - النـــذر:

وهو التزام العبد ما لم يلزمه من الطاعات، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشيء من العبادات تقرباً إلى اللّه تعالى، أو بشرط أن يقضى اللّه تعالى له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها، كأن يقول فى تعهده: اللهم إن شفيتَ مريضى، أو رددتَ علىَّ غائبى؛ أو قضيتَ حاجتى فى كذا ..، لك علىَّ أن أتصدق بكذا ... أو أصوم أو أصلى كذا وكذا، .. والنذر مما تعبد اللّه تعالى به عباده المؤمنين، قال تعالى مثنياً عليهم بالوفاء به: ﴿ **يُوفُونَ بِالنَّذْرِ** ﴾ (الإنسان:7).

وقال مرغباً فيه: ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ** ﴾ (البقرة:270).

وخير النذر ما كان بغير شرط، لكراهة النَّبى ﷺ النذْرُ المَشْروط فى قوله: «**النذر لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به من مال البخيل**»(1). وبناء على هذا فإن من نذر لغير اللّه تعالى وسواء نذر لحى أو ميت فقد أشرك(2)، لأن النذر عبادة ظاهرة ؛ إذ هو توجه القلب إلى المنذور له رغبة فيما عنده من الخير وهو استشعار قدرته وغناه ؛ وإظهار الناذر عجزه وضعفه وافتقاره إلى من نذر إليه.

وهذا وايم اللّه لا يليق إلا باللّه تعالى، ويا ويل أولئك الذين ينذرون إلى الأولياء والصالحين من أموات المسلمين وأحيائهم فقد وقعوا فى هَلَكة وهم لا يشعرون، وأشركوا بعبادة ربهم غيرَه وهم لا يعلمون.

٥-ذبـح القـربـان:

ذبح القربان وهو ما يُتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدى فى الحج وضحايا يوم عيد الأضحى، وشاة العقيقة يوم سابع المولود، وذبائح وليمة العرس، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين، كل هذا قد شرعه الله تعالى فى كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ، فكان هذا الذبح تقرباً وعبادة لا تنبغى إلا لله تعالى، ومن ذبح لغير الله تعالى معظماً له، خائفاً منه راجياً ما عنده فقد عبده بهذه العبادة وأشركه فى عبادة ربه عز وجل.

وهنا يحسن التنبيه والتنديد معاً بما يفعله أهلُ الجهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والقبور فى أيام الموالد والمواسم تعظيماً لمن يذبحون لهم، وتقديساً، ورغبة فى شفاعتهم، وطمعاً فيهم، وتوسلاً بجاههم .

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد، ذبائح الزار، والنُّشرة، وعلى حافات الآبار.

---

(1) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (2/ 168).

(2) لا يدخل فى هذا النذر المحرم وعد المؤمن لأخيه إن رزقه الله كذا فإنه يعطيه كذا أو يقرضه كذا.

وعتبات المنازل خوفاً من الجن. إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

٦ ـ الركوع والسجود:

إن عبادة الركوع والسجود ظاهرة يزاولها المسلمون كل يوم في حياتهم، إذ هما ركنا الصلاة اللذان لا تصح الصلاة بدونهما، وقد تعبد الله تعالى بهما سائر عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الحج: 77).

وأمر مريم ابنة عمران به في إخباره عنها بقوله: ﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (آل عمران: 43).

وأمر رسوله بالسجود طلباً للقرب منه فقال: ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (العلق: 19).

ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء، والسجود وهو وضع الوجه على الأرض عبادة لا تنبغي لأحد مهما كان شأنه إلا لله تعالى، ومن ركع لأحد أو سجد له معظماً إياه، أو طامعاً فيه، أو خائفاً منه، وليس بمكره على ذلك فقد أشرك بربه، وعبد مع الله غيره، وكان فعله شركاً أكبر، لا يغفره الله إلا أن يتوب منه قبل موته، لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ (النساء: 116) .

٧ ـ الطواف بالبيت العتيق وتقبيل الحجر الأسود:

إن الطواف عبادة شرعها الله تعالى لعباده، وأمرهم بها في قوله: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج: 29).

وعليه فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر ؛ أو ضريح أو مشهد أو غير ذلك معظماً لما يطوف متقرباً إليه أو به إلى غيره حتى ولو كان إلى الله تعالى، فقد ابتدع وأشرك، وطوافه ذلك شرك أكبر، وبدعة ضلالة من أشنع البدع وأقبحها، لما فيها من التشريع، وهو حق الله تعالى وحده دون سواه، وإن تقبيل الركن اليماني من البيت العتيق عبادة شرعها الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، ولم يشرع لهذه الأمة تقبيل حجر آخر، ولا ركن ولا جدار، ولا قبر ولا ضريح، ولا تابوت، وعليه فمن قبَّل عتبة، أو جداراً، أو باباً، أو حلقة في باب، أو قبراً أو مشهداً قائماً من المشاهد فقد ابتدع، وإن فعل ذلك تعظيماً لما قبَّله وتقديساً راجياً منه النفع، دافعاً به الضُّر فقد أشرك.

٨ ـ سائر أنواع العبادات:

إن كل ما شَرَع الله لعباده من الطاعات والقربات ليعبدوه بها تقرباً إليه تعالى وتزلفاً، من

صلاة، وصيام، وحج، واعتمار ،وصدقات، وزكوات، واعتكاف، وجهاد، ورباط، وفعل خير من بر وصلة، وذكر، ودعاء، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وتعليم علم وتعلمه .. كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ فعله لغير الله تعالى، وابتغاء مرضاة به غير مرضاة الله شرك فى عبادة الله تعالى يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد الدالة عليه كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله.

٩ ـ ترك طاعة الله للرغبة أو الرهبة:

لقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله لقوله من سورة القتال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ (محمد:33).

فطاعة الله، وطاعة رسوله فى الأمر والنهى عبادة تعبد الله تعالى بها المؤمنين من عباده، فمن ترك طاعتهما غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائناً من كان رغبة فيما عنده، أو رهبة مما لديه فقد أشرك، وتركه لطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ وهو غير مكره رغبة أو رهبة فيمن أطاعه شرك ؛ إذ الطاعة فى المعروف فقط، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

١٠ ـ تعظيم الله تعالى بالحلف به عز وجل:

إن تعظيم الله عز وجل بتكبيره، والحلف به وإجلاله تبارك وتعالى عبادة تعبد الله بها المؤمنين من عباده، فلذا لا يجوز الحلف بغيره تعالى، ومن حلف بغير الله تعالى، فقد أشرك، لما صح عن النبى ﷺ من النهى عن الحلف بغير الله تعالى، وجعل ذلك من الشرك، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[1]، وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» وفى لفظ «**فقد كفر**»[2]، وقال: «**من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**» .[3]

هذا ولما كان الكثير من الشرك الذى وقع فيه بعض المسلمين اليوم إنما وقع باسم التوسل والاستشفاع والتبرك، وتحت شعارها فإننا نختم هذا الجزء من هذا البحث فى عقيدة المؤمن ببيان كل من الوسيلة والتوسل، والشفاعة والتشفع، والبركة والتبرك تبياناً للحق وهداية إليه.

---

(1) متفق عليه (2/ 170)، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

(2) رواه الترمذى، وقال: هذا حديث حسن، رواه أحمد والحاكم.

(3) متفق عليه (2/ 170) اللؤلؤ والمرجان، ومسلم (5/ 81).

الوسيلة

تعريف:

ما هى الوسيلة:

الوسيلة: لغة اسمٌ فعله وسل إليه بكذا يسل وسيلة فهو واسل، تقرب ورغب، ومثله توسل إليه بكذا توسلاً وتوسيلاً، إذا عمل عملاً تقرب به إليه، فالمتوسل والواسل بمعنى واحد، قال أبو طالب فى لاميته:

أرى النَّاس لا يْدرونَ مـا قـدرُ أمْـرِهم ... بَلَـى كُل ذِى ديـنٍ إلى اللهِ واسـلُ

وتجمع الوسيلة على وسائل، كما فى قول لبيد:

وَلَما رأيتُ القَـوْمَ لا وُد فـيهـمـو ... وَقَـدْ قَطَعـوا كلَّ العُـرَى والوسَـائل

ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك، وعلى الدرجة والقربة، وأطلقت كذلك على أعلى درجة فى الجنة، وهى التى قال رسول الله ﷺ : **«ثم سلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة ؛ حلت له الشفاعة»**.(1)

وأما الوسيلة في الشرع فهى العمل يقدمه المؤمن بين يدى رغبته ليتوسل به إليها(2) فيفوز بمرغوبه، ويحصل على مطلوبه.

والوسيلة التى هى التقرب إلى اللّه تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى والحظوة لديه والدرجة عنده سبحانه وتعالى، أو لقضاء حاجة بحصول نفع، أو دفع ضر، هذه الوسيلة الشرعية مبناها ثلاثة أمور:

الأول: المتوسَّل إليه وهو اللّه ذو الفضل والإنعام.

والثانى: الواسل أو المتوسِّل وهو العبد الضعيف، المحتاج، الطالب القرب من الرب تعالى، أو الراغب فى قضاء حاجة له من جلب خير، أو دفع شر.

والثالث: المتوسَّل به وهو العمل الصالح المتقرَّب به إلى اللّه تعالى وهو الوسيلة، ولكى تكون الوسيلة مجدية نافعة يحصل بها القرب، أو تُقضى بها الحاجة ؛ لابد من مراعاة ما يلى كشروط أساسية لابد من توفرها للواسل الذى يريد أن ينتفع بوسيلته: ـ

---

(1) رواه مسلم (1/ 4)، تصوير المكتب التجارى بيروت.

(2) الضمير فى إليها عائد إلى الرغبة.

(1) أن يكون العبد الواسل إلى اللّه تعالى المتوسل إليه مؤمناً صالحاً.

(2) أن يكون العمل المتوسَّل به مما شرع اللّه تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه.

(3) أن يكون العمل المشروع قربة موافقاً فى أدائه لما كان الرسول ﷺ يؤديه، فلا يُزاد فيه، ولا ينقص منه، ولا يفعل فى غير زمانه الذى شُرع له، ولا فى غير مكانه الذى عين له وحُدد.

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبداً، كما لا تكون البدعة قربة إلى اللّه تعالى، ولا وسيلة إليه بحال من الأحوال. والوسيلة بهذا المعنى مشروعة مندوب إليها فى كل زمان ومكان. قال تعالى فى سورة المائدة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الآية: 35).

وقال عز وجل فى سورة الإسراء: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ (الآية:57).

ففى الآية الأولى أمر وترغيب للمؤمنين فى طلب القرب من اللّه تعالى بفعل الطاعات الزائدة عن الفرائض والواجبات ؛ لأن تقوى اللّه تعالى تتحقق بفعل المأمور، وترك المنهى، وبها تتحقق النجاة من العذاب إن شاء اللّه تعالى، وطلب الوسيلة وهى القرب من اللّه تعالى والحظوة لديه سبحانه وتعالى يكون بفعل نوافل العبادات من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وعمرة، وجهاد، وبغيرها من سائر النوافل، والقرب، والطاعات. وفى الآية الثانية اخبار عن نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه بصالح الأعمال، والنفر من العرب لم يشعروا بإسلام أولئك النفر من الجن وبقوا يعبدونهم، فأخبر تعالى عن حالهم فى هذه الآية الكريمة منبهاً إلى خطئهم، وضلالهم محذراً منه.

الوسيلة جائزة وممنوعة :

والوسيلة منها ما هو جائز، ومنها ما هو ممنوع، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ندباً أو إباحة، والممنوع منها ما لم يأذن فيه الشارع كراهة أو تحريماً، ولا فرق فى ذلك بين التوسل إلى الأمور الدنيوية، أو الأمور الأخروية، فلابد من إذن من الشارع فى جواز الوسيلة، وإلا حرمت، ومن أمثلة ذلك فى الأمور الدنيوية:

(1) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية فبحث عن وسيلة تحقق له مراده فرأى قتل أخيه الغنى الذى لا وارث له إلا هو، فهل هذه الوسيلة يجوز استعمالها، للحصول على المال المطلوب ؟ والجواب قطعاً: لا، لأنها وسيلة محرمة.

(2) رجل خطب امرأة فى نفسها فأبت الزواج منه فرأى أن الوسيلة أن يذهب إلى ساحر، أو دجال يكتب له حرزاً ليحببه إليها حتى تتزوجه. فهل هذه الوسيلة جائزة ؟ والجواب، لا. بل هى محرمة شرعاً.

(3) امرؤ سُرق له مال ولم يعرف سارقه، فقيل له: إن فلاناً عَرَّافاً اذهب إليه فسيكشف لك عن السارق بواسطة رئيه من الجن، فهل يجوز أن يذهب إليه ليكشف له عن السرقة بواسطة الجن ؟ والجواب، لا، لأن هذه الوسيلة محرمة .

(4) رجل مرض له أخوه فعالجه فلم يبرأ، فقيل له: اذهب إلى الضريح الفلانى، واستشفع بصاحبه، وناده واستغث به فإن أخاك يبرأ من مرضه. فهل يجوز أن يذهب بمريضه إلى هذا الضريح، ويستشفع به ويستغيث ؟ والجواب لا ؛ لأن هذا العمل شرك بالله.

(5) مريض وُصف له شرب كأس من الخمر سبع ليال أو أكثر أو أقل ليبرأ من مرضه، فهل يجوز استعمال هذه الوسيلة لشفائه ؟ والجواب: لا.

(6) حكومة مسلمة قيل لها: إن هناك كلاباً بوليسية تكشف عن الجرائم بصورة عجيبة، فهل يجوز أن تستعمل هذه الكلاب فى كشف الجرائم ؟ والجواب: لا، لأن هذه الوسيلة محرمة ؛ إذ البينة لا تثبت إلا بشهادة عدلين من المسلمين، أو بالاعتراف من الجانى، فكيف تقبل شهادة كلب؟!

(7) امرأة أرادت أن تتزوج، فقيل لها: اذهبى إلى فلانة الشوافة فاستخبريها فى شأن زواجك بفلان، فإن أذنت لك فتزوجيه وإلا فلا ؛ لأنها تعرف بواسطة رئى لها من الجن، فهل يجوز لها أن تذهب إلى فلانة كوسيلة للكشف عن غيب ؟ والجواب: لا ؛ إذ الوسيلة هذه محرمة شرعاً، وهكذا ما أذن فيه الشارع فقط، فتجوز وسيلة التجارة، والفلاحة، والصناعة، والحمالة للحصول على المال، ولكن لا يجوز الربا، والغش، والسرقة، والتلصص لجلب المال.

يجوز التداوى من الأمراض بالأدوية، ولا يجوز التداوى بالسموم، والنجاسات، والمحرمات، يجوز البحث عن المجرمين، والسارقين، واستعمال الوسائل الجائزة لاكتشاف السرقات، ولكن لا يجوز استعمال الكلاب البوليسية، ولا استخدام الكهانة، ولا العرافة، ولا التنجيم بواسطة الكهان والعرافين، والمنجمين.

وفى الأمور الإلهية:

إن المراد من التوسل فى الأمور الإلهية هو التوسل إلى الله تعالى فى أحد أمرين:

أولهما ـ وهو أشرفهما ـ: وهو القرب من الله تعالى، والحظوة لديه، والمنزلة العالية عنده.

وثانيهما: قضاء الحاجات بجلب نفع، أو دفع ضر، وبعبارة أوضح: هو التوسل إلى اللّه تعالى للحصول على مرغوب فى الدنيا أو الآخرة، والنجاة من مرهوب فى الدنيا أو الآخرة.

والتوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرعه عبادة وقربة يعبده بها عباده المؤمنون، ويتقربون به إليه، فكل توسل إليه تعالى بغير ما شرعه من العبادات والقربات هو توسل باطل ضار غير نافع، ومن هنا تعين أن نذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية، المباحة، النافعة للواسلين، كما نقفى عليها[1] بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة تعليماً وتحذيراً. وبذلك نكون قد وفينا هذا الجزء من العقيدة، بحثاً وتحقيقاً. وقبل الشروع ننبه إلى أن الطاعات التى شرعها اللّه تعالى لعباده قرباً يتقربون بها إليه، ووسائل يتوسلون بها كثيرة، وهى: كل الإيمان والعمل الصالح وأعظمها وسيلة الإيمان باللّه ورسله، ثم أداء الفرائض التى افترضها اللّه تعالى على عباده، ودون ذلك نوافل العبَادات، وترك المحرمات والمكروهات، وذلك لقوله تعالى فى الحديث القدسى الذى أخرجه البخارى: «**وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ...**» الحديث[2].

الوسائل المشروعة:

(١) الإيمان:

من الوسائل المشروعة الإيمان باللّه تعالى، وبكل ما أمر اللّه بالإيمان به من الملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

والإيمان من أفضل الأعمال، وأشرف الوسائل التى يُتوسل بها إلى اللّه تعالى للحصول على مرغوب، أو النجاة من مرهوب، فقد رضيه اللّه تعالى وسيلة إليه، وأثنى على المتوسلين به فى قوله: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (آل عمران: 16).

وفى قوله من آل عمران أيضاً: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ (الآية: 193).

وفى الحديث أن رجلاً توسل فى دعائه بالإيمان فقال: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت اللّه لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والرسولُ ﷺ يَسْمعُ فَقَالَ: «**والذى نفسى بيده لقد سأل اللّه باسمه الأعظم ! الذى إذا دعى به**

---

(١) نقفى عليها: أى نتبعها.

(٢) متن البخارى (8/ 131) - كتاب الرقاق باب التواضع. مطبعة محمد على صبيح وأولاده.

أجاب، وإذا سئل به أعطى»[1]، ومن هنا كان لأى مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى اللّه تعالى بإيمانه فى أى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها فيقول: اللهم إنى أسألك بإيمانى بك، وبرسولك، أو بأنى أشهد أنك أنت اللّه الذى لا إله إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك، أن تغفر لى، وترحمنى، أو تقضى حاجتى فى كذا ... ويسمى حاجته.

٢ ـ الصلاة:

إن الصلاة -فرْضَها ونفْلَها- من أفضل الأعمال وأحبها إلى اللّه تعالى: لقوله ﷺ فى رواية الصحيح وقد سُئل عن أحب الأعمال إلى اللّه تعالى، فقال: «**الصلاة على وقتها**» فأى مؤمن أو مؤمنة يرغب فى المنزلة عند اللّه تعالى والحظوة لديه عز وجل فليحافظ على الصلوات الخمس وليؤدها فى أوقاتها يظفر بمرغوبه بإذن اللّه تعالى، وأى مؤمن أو مؤمنة تعرض له حاجة، ويرغب فى قضائها، والحصول عليها فليتوضأ وليصل ركعتين ويسأل اللّه تعالى حاجته، فإنها تقضى بإذن اللّه كما أمر الرسول ﷺ الرجل الضرير بأن يتوضأ ويصلى ركعتين، ويسأل اللّه تعالى، ففعل ودعا له الرسول ﷺ فرد اللّه عليه بصره[2].

٣ ـ الصيام:

إن طالبَ القرب من اللّه تعالى، والراغب فى الحظوة لدى مولاه، والمتوسل إليه بالإيمان وصالح الأعمال يرشد إلى الصيام ؛ فإنه خير وسيلة إلى ذلك ؛ فقد روى النسائى فى سننه: «أن أبا أمامة أتى رسول اللّه ﷺ فقال: يارسول اللّه دلنى على عمل أدخل به الجنة ؟ قال: «**عليك بالصوم فإنه لا مثل له**». وروى البخارى ومسلم واللفظ له: أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «**ما من عبد يصوم يوماً فى سَبيل اللّه تعالى ؛ إلا باعد اللّه بذلك اليوم وجهه عن النارَ سبعين خريفاً**»[3]. وصح أيضاً: «**أن خلوف فم الصائم أطيب عند اللّه من ريح المسك**»[4].

---

(١) رواه الترمذى وحسنه، وأبو داود وإسناده صحيح، ورواه أحمد فى المسند وابن ماجه، وابن حبان والحاكم: جامع الأصول فى أحاديث الرسول - مطبعة الملاح- تعليق عبد القادر الأرنؤوطى - (4/ 170).

(٢) رواه الترمذى (9/ 117-118)، وأحمد (4/ 138)، وابن ماجه (إمامة/ 189).

(٣) اللؤلؤ والمرجان (2/ 20)، والبخارى (4/ 31، 32)، ومسلم (3/ 159).

(٤) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 19)، ولفظ البخارى (**والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك**) (3/ 30، 32)، ومسلم (3/ 157، 158)، والخلوف: بضم الخاء المعجمة، واللام: تغير رائحة الفم لخلو المعدة من الطعام.

هذا ورد فى التوسل بالصيام للحصول على القُرْب من اللّه تعالى. وأما التوسل به لقضاء الحاجات، واستجابة الدعوات: فقد روى الترمذى بسند حسن وأحمد كذلك عن أبى هريرة: أن النبى ﷺ قال: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، والمظلوم**» وورد بسند ضعيف «**للصائم دعوة لا ترد**»، ويشهد له الحديث السابق عليه.

٤- الصدقة :

إن الصدقة بطيب المال وطيب النفس، لنعم الوسيلة لطلب القرب من اللّه تعالى، والزلفى إليه، ولنعم الوسيلة للحصول على المرغوب الدنيوى، والأخروى، وللنجاة من المرهوب فى الدنيا والآخرة. وها هى ذى أحاديث الرسول ﷺ تشهد بذلك وتؤكده. قال ﷺ فى الصحيح: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» وقال: «**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**». وقال: «**صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر**».

٥ . الحج :

إن الحج إلى بيت اللّه تعالى لمن أعظم القرب، وأشرف الوسائل، ويكفى فى التدليل على ذلك أن نعلم أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وأن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، كما صح ذلك عن النبى ﷺ فى رواية الشيخين.

٦ . الاعتمار:

الاعتمار: هو زيارة بيت اللّه تعالى للطواف به، والسعى بين الصفا والمروة وسيلة للقرب من اللّه تعالى واستجابة الدعاء، وتكفير الذنوب لقول الرَّسول ﷺ فى الصحيح: «**تابعوا بين الحج والعمرة ؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة**».

٧ . الجهاد والرباط:

إن الجهاد فى سبيل اللّه والرباط، لمن أعظم الوسائل وأشرفها، وأجل الأعمال وأفضلها، ولنعم الوسيلة هما للفوز بالقرب من اللّه تعالى وللحظوة لديه سبحانه وتعالى. يقول الرسول ﷺ فى رواية الصحيحين: «**إن فى الجنة مائة درجة أعدها اللّه للمجاهدين فى سبيل اللّه، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[1]. ويقول: «**مقام الرجل فى الصف فى سبيل اللّه أفضل من عبادة الرجل ستين سنة**»[2]. ويقول «**الغازى فى سبيل اللّه، والحاج إلى بيت اللّه والمعتمر،**

(1) البخارى (9/ 153)، ومسلم (66/ 37).

(2) رواه الدارمى (الجهاد / 7)، وأحمد (2/ 446)، والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى (2/ 68).

وفد اللّه دعاهم فأجابوه (إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم)»[1] ويقول: «رباط يوم فى سبيل اللّه خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل اللّه، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»[2]. ويقول: «حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية اللّه، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل اللّه»[3].

٨ ـ تلاوة القرآن الكريم:

إن تلاوة القرآن الكريم لمن أشرف الوسائل، وخير ما يطلب به القرب من اللّه تعالى ؛ إذ قراءة الحرف منه بعشر حسنات، لحديث الترمذى عن ابن مسعود، كما أن مجالس قراءته، ومدارسته تنزل عليها السكينة، وتحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، لحديث الصحيح، وتعلمه وتعليمه للناس يكسبه خيرية يفوق بها سواه من سائر المؤمنين لقول الرسول ﷺ فى الصحيح: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[4] كما يجعله فى معيَّة الكرام البررة من عباد اللّه، ولحديث مسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[5]، كما يقال له إذا دخل الجنة «اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» كما روى ذلك الترمذى بسند صحيح[6].

٩ ـ الذكر والتسبيح:

إن ذكر اللّه تعالى وتسبيحه بالكلمات الواردة عن النبى ﷺ مثل كلمات: «لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير»، ومثل قول: «سبحان اللّه وبحمده سبحان اللّه العظيم» ،ومثل قول: «سبحان اللّه، والحمد لله، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم» لمن أعظم القرب، وأفضل الوسائل لقول الرسول ﷺ كما فى الصحيحين: «يقول اللّه تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم»[7] ولقوله ﷺ، للرجل الذى قال له «إن شرائع الإسلام قد كثرت، فأخبرنى بشىء أتشبث به قال «لا يزال لسانك رطباً من ذكر اللّه تعالى»[8]، وقوله ﷺ: «ما عمل

---

(1) رواه النسائى (6/ 14، 15)، وغيره ولم يعل بأية علة قادحة فيه، ورواه ابن ماجه، والزيادة التى بين القوسين له (مناسك / 5).

(2) رواه البخارى (4/ 43).

(3) رواه أحمد (4/ 135)، وأصله فى الصحيحين (2/ 257) من اللؤلؤ والمرجان، وأخرج النسائى الجزء الأخير منه (6/ 13).

(4) البخارى (6/ 236). (5) مسلم (2/ 195).

(6) الترمذى (42/ 11، 13)، وأحمد (3/ 40). (7) اللؤلؤ والمرجان (3/ 219).

(8) رواه الحاكم وصححه ورواه الترمذى (الدعوات / 41)، وأحمد (4/ 188/ 190).

ابن آدم عملاً أنجى من العذاب من ذكر الله تعالى»[1] وقوله «مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت»[2].

١٠ ـ الصلاة على النبى ﷺ :

إن الصلاة على النبى ﷺ من أعظم الوسائل وأشرفها لرفع الدرجات، وقضاء الحاجات لقول الرسول ﷺ فى الصحيح: «من صلى علىَّ صلاة واحدة ؛ صلى الله عليه بها عشراً».

وقوله للذى قال له: أجعل لك صلاتى كلها: «إذاً تكفى همك، ويغفر لك ذنبك»[3].

وقوله فى حديث أحمد والحاكم الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف والذى جاء فيه «أن رسول الله ﷺ خرج فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت عليه، أو خفت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه، قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه، فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له. فقال: «إن جبريل عليه السلام قال لى: ألا أبشرك؟ إن الله عز وجل يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكراً».

١١ ـ الاستغفار:

إن الاستغفار وهو طلب المغفرة من الله عز وجل بلفظ: أستغفر الله، أو اللهم اغفر لى، من الوسائل المشروعة ذات الفضل العظيم، لثناء الله تعالى على أهلها بقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:17)، وقوله: ﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات:18)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران:135).

ولقول الرسول ﷺ: «من قال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ؛ غفر له وإن كان قد فر من الزحف»[4]، ولقوله ﷺ: «من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»[5].

١٢ ـ الدعـــاء:

إن الدعاء وسؤال الله عز وجل لمن خير ما يتوسل به المتوسلون لقضاء حوائجهم، وتفريج كروبهم، وكيف لا يكون كذلك، والله تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:60).

---

(1) رواه الطبرانى بإسناد صحيح، وكذا ابن ماجه (أدب / 53)، وأحمد (5/ 239)، وغيرهم.

(2) رواه البخارى (8/ 107).

(3) رواه أحمد والترمذى (قيامة/ 23) وصححه.

(4) رواه أبو داود وإسناده جيد.

(5) رواه أبو داود وهو صحيح الإسناد (1/ 348)، وأحمد (1/ 148)، (1/ 348)، والترمذى (دعوات/ 117).

ويقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:186). والرسول ﷺ يقول: «**الدعاء هو العبادة**»، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:60).

ويقول: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة ؛ إلا أتاه الله تعالى إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»[1]. وقال «**ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة ؛ إلا أعطاها إياه: إما أن يعجلها له، وإما أن يدخرها له في الآخرة**». وفي لفظ: «**إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**. قالوا: إذا نكثر ! قال: **الله أكثر**»[2] وقال ﷺ: «**إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين**»[3].

١٣ ـ دعاء المؤمنين:

إن من بين الوسائل المشروعة، التي ترفع بها الدرجات، وتقضى بها الحاجات دعاءَ المؤمن لأخيه المؤمن، فقد كان أصحاب الرسول ﷺ يأتونه يطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم، فيدعو، فيستجيب الله تعالى له فيهم، فتقضى حاجاتهم، فكم من مرة توسلوا ﷺ بدعاء نبيهم في طلب الغيث، فيستجيب الله تعالى ويسقون، وهذا ثابت في الصحيح لا شك فيه. وقد تقدم خبر الضرير، وأنه توسل بدعاء النبي ﷺ، قال: «**ادع الله لي يا رسول الله أن يرد عليَّ بصري، فدعا له الرسول ﷺ ، فرد الله عليه بصره، وعاد كأن لم يكن قد مسه ضر**»[4]، وكما صح أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب وهو يريد العمرة: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»، وفي لفظ: «**أشركنا يا أخي في دعائك**»[5]، وتوسل أصحاب النبي ﷺ بعد وفاته بدعاء العباس ﷺ لهم في صلاة الاستسقاء فاستجاب الله تعالى له، وسقاهم بعد قحط شديد[6].

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضاً، فيقول المؤمن لأخيه: ادع الله لي يا فلان، لما علموا من مشروعية ذلك وجوازه، وكيف وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الموكل به آمين ولك بمثله**»[7].

(1) رواه الترمذي وصححه (دعوات/ 115). (2) رواه أحمد بإسناد لا بأس به (3/ 18).
(3) أبو داود (1 / 342)، والترمذي (دعوات / 104)، وحسنه، والحاكم وصححه على شرط الشيخين (1/ 497)، وأحمد (5 / 438)، وابن ماجه (دعاء / 13).
(4) رواه الترمذي (9/ 118)، وأحمد (4/ 138)، وابن ماجه (إقامة/ 189).
(5) رواه أبو داود (1/ 334)، والترمذي (دعوات/ 109).
(6) رواه البخاري من حديث أنس (1/ 32، 33). (7) رواه مسلم (8/ 86).

١٤ ـ أسماء الله تعالى الحسنى:

إن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا لمن خير الوسائل وأجداها، وأنفعها للعبد، فإن امرءاً مسلماً يدعو الله تعالى بأسمائه وصفاته لا يخيب في دعائه، ولا يُحرم الاستجابة من ربه إلا أن يدعو بإثم أو قطيعة، ومما ورد به التوسل من أسماء الله تعالى وصفاته ما يلي ذكره:

1 - لفظ: «ياذا الجلال والإكرام»، لحديث الترمذي الحسن الإسناد عن معاذ، وهو قوله ﷺ -وقد سمع رجلاً يقولُ: يا ذا الجلال والإكرام-: «**قد استجيب لك فسل**».

2 ـ يا أرحم الراحمين، لما روى الحاكم عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «**إن لله ملكاً موكلاً بمن يقول يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاثاً قال الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل**».

3 ـ اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، يا حنان يا منان، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، لحديث أنس عند أحمد وغيره بسند صحيح: أن النبي ﷺ، مر بأبي عياش وهو يصلي ويقول: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ...إلخ، فقال: «**لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»(1)

4 ـ يا رب، يا رب، يا رب، لحديث عائشة: «**إذا قال العبد: يا رب، يا رب، يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدي، سل تعط**»(2).

5 ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لحديث سعد بن أبي وقاص عند النسائي والترمذي وسنده لا بأس به: أن النبي ﷺ قال: «**دعوة ذي النون إذ دعاه وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين؛ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله تعالى له**»(3).

هذا وأسماء الله تعالى وهي تسعة وتسعون اسماً كلها يُدعى بها الرب تبارك وتعالى، ويُتوسل بها إليه، فيستجيب للداعين، ويعطي السائلين، وهو البر الرحيم، الجواد الكريم. وما ذكرناه مجرد مثال حضرنا من قرب فتناولناه، وإلا فإن أسماء الله تعالى، وصفاته كلها يدعى بها، قال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ (الأعراف:180).

١٥ ـ فعل الخيرات مطلقاً:

إنه ما من خير أو برٍّ يفعله المؤمن إيماناً واحتساباً إلا كان له وسيلة إلى ربه فليسأل به

---

(1) أحمد (3/ 158).

(2) ابن أبي الدنيا، وسكت عنه المنذري ولم يذكر له علة، الترغيب والترهيب (2 / 488).

(3) الترمذي (دعوات/ 81)، وأحمد (1/ 170).

مولاه عز وجل فإنه يعطيه ولا يخيبه أبداً. وشاهد هذا ما جاء في البخاري ومسلم من حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار في جبل فسقطت صخرة على فم الغار فسدّته عليهم، فقد توسل اثنان منهم ببر فعلوه لوجه الله، وتوسل الثالث بترك إثم تركه خوفاً من الله، فاستجاب الله لهم، وكشف ما بهم، وخرجوا سالمين من الغار(1).

كما أن رجلاً من بني إسرائيل أماط غصن شوك من طريق المؤمنين خشية أن يصيب أحداً منهم، فشكر الله تعالى له ذلك العمل القليل، فغفر له، وأدخله الجنة(2) كما أن امرأة بغيّاً من بني إسرائيل سقت كلباً عطشان يأكل الثرى من شدة العطش سقته لوجه الله تعالى ؛ فشكر الله تعالى لها ذلك، وأدخلها الجنة، وهذا ثابت في الصحيحين لا مجال لإنكاره»(3).

١٦ ـ ترك المحرمات:

إن من بين الوسائل النافعة المشروعة للحصول على القرب والفوز برضاء الرب، ولاستجابة الدعوات، وقضاء الحاجات ؛ تركَ المحرمات، إنه ما من مؤمن يترك كبيرة من كبائر الإثم خوفاً من الله تعالى وحياء منه ؛ إلا كان له ذلك وسيلة، له أن يتوسل به إلى ربه. كما فعل أحد الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم باب الغار حتى كادوا يهلكون ؛ فقد توسل إلى الله تعالى بقوله: «اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني، فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ؛ فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة ...» الخ(4).

وهكذا فإنه لكل مؤمن أن يتوسل إلى الله تعالى عند الشدائد، وتعسر الأمور بما ترك من معاصي الله تعالى خوفاً من الله وحياء منه، وطاعة له، بعد أن يكون قد همَّ بها وأرادها ؛ فإنه يستجاب له، ويفرج كربه، أو تقضى حاجته بإذن الله تعالى.

* * *

(1) راجع اللؤلؤ والمرجان (3/ 136)، والبخاري (3/ 99، 100)، ومسلم (8/ 89، 90).
(2) الحديث ثابت في الصحيحين راجع اللؤلؤ والمرجان (31/ 201)، والبخاري (1/ 157، 158)، ومسلم (8/ 34).
(3) راجع اللؤلؤ والمرجان (3/ 75)، والبخاري (4/ 211)، ومسلم (7/ 44، 45).
(4) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 236)، والبخاري (3/ 99، 110)، ومسلم (8/ 89، 90).

الوسائل المحرمة

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة النافعة من الوسائل المشروعة، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة، والتى شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة، وصرفتهم عنها فحُرموا من التوسل المشروع، بسبب انشغالهم بالممنوع، فخابوا فى سعيهم وخسروا.

نذكر هذا نُصحاً للمسلمين، وتبليغاً لرسالة الإسلام، وتعريفاً بها بين المسلمين وغير المسلمين.

ومن تلك التوسلات الباطلة الممنوعة:

١ ـ دعاء الأولياء والصالحين:

إن دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والتوسل بجاههم لم يكن فى دين اللّه تعالى قربة ولا عملاً صالحاً فيتوسل به أبداً، وإنما كان شركاً فى عبادة اللّه محرماً، يُخْرِج فاعله من الدين، ويوجب له الخلود فى جهنم.

إن كل ما يفعله جهلة المسلمين اليوم من دعاء الصالحين كقول أحدهم: يا سيدى فلاناً، ومولاى فلاناً خذ بيدى، وكن لى كذا، وادع اللّه لى بكذا، أو أنا فى حماك، أنا بك وباللّه، وأنا دخيلك ..، إلى غير ذلك من كلمات الشرك والباطل هو من الضلال، والجهل، والإسلام برىء منه ؛ إذ لم يشرعه ولم يأذن فيه بل حرمه، ومنعه وتوعد عليه بمثل قول اللّه تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ** ﴾ (المائدة:72).

٢ ـ النذور للأولياء والصالحين:

إن ما ينذره جهلة المسلمين من نذور للأولياء والصالحين من أموات المسلمين ليس وسيلة مشروعة لله للتقرب بها إلى اللّه تعالى، ولا لقضاء الحاجات واستجابة الدعوات، وإنما هو شرك مُحرم، وقع فيه من وقع من أمة الإسلام لبعدهم عن دراسة كتاب اللّه، وسنة رسول اللّه ﷺ إن قول أحدهم: يا سيدى فلاناً إن رَزقنى اللّه كذا، أجعل لك كذا. أو يا سيدى فلاناً إن تحقق لى كذا، أو تحصلت على كذا أجعل لك كذا، أو أقدم لك كذا .. كل هذا نذر لغير اللّه تعالى، وعبادة صُرفت لغيره تعالى فصاحبها آت أخطر باب من أبواب الشرك، والإسلام برىء من عمله ؛ إذ ليس من عقائد المسلمين الإقبال على غير اللّه تعالى، ودعاؤه، وعدَته بالذبح له، أو بناء قبة عليه، أو بإيقاد الشموع على ضريحه، أو وضع ستائر على تابوته، إن حصل للناذر ما نذر لأجله، بل هذا يتنافى مع كلمة التوحيد والغرض الذى يقولها المسلم من أجله، وهو نفى العبادة عن كل أحد وإثباتها لله تعالى وحده لا شريك له.

٣ ـ الذبائح على أرواح الأولياء:

إن ما عرفه جهلة المسلمين اليوم، وتعارفوا عليه من الذبائح على أضرحة الأولياء، وعلى المشاهد، والقباب فى المواسم التى تقام باسم أولئك الصالحين من الوقت إلى الوقت، من البقر والغنم، لتذبح هناك حول أضرحة الصالحين، كل هذا ضلال وباطل، وليس مما شرع الله تعالى لعباده التوسل به إليه أبداً، وإنما هو عمل من أعمال الجاهلية الأولى، وشرك فى عبادة الله تعالى، وتنديد، حَرمهما الله تعالى بقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء:36). وبقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:22).

٤ ـ العكوف حول قبور الصالحين:

ليس من التوسل المشروع نقل المرضى إلى أضرحة الأولياء، ولا العكوف حول تلك الأضرحة والقبور، ولا المبيت هناك، ولا إقامة الحفلات والحضرات. كما ليس من التوسل المشروع فى شىء الاستشفاع بأصحاب تلك الأضرحة والقبور، ولا نداءاتهم، وطلب الدعاء منهم، ولا الاستغاثة بهم. وإنما هذا وما شابهه مما يقام عند الأضرحة والقبور شرك محرم، وعمل فاسد لا يأتيه إلا من سَفِه نفسَه، وجَهل أكبر أصل من أصول الدين الإسلامى وهو توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون سواه. وإن المصر عَلى هذا الباطل والمقر عليه كليهما أشرك بالله تعالى، وكفر بعد إيمانه، والعياذ بالله تعالى.

٥ ـ سؤال الله بجاه فلان:

ليس من التوسل إلى الله تعالى طلباً للقرب، ولا لقضاء الحاجات سؤال الله تعالى بجاه أحد من خلقه. كقول أحدهم: اللهم إنى أسألك بجاه نبيك فلان، أو عبدك فلان ؛ إذ هذا التوسل لم يعرفه دين الإسلام، فلم يرد فى كتابه ولا فى سنة نبيه ﷺ، والذى عرفه الإسلام، وأمر به، ودعا إليه هو سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذلك كقول المسلم: يا الله، يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم. امتثالاً لقول الله تعالى، وطاعة له فى قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف:180).

أما سؤاله تعالى بجاه فلان فإنه سؤال مبتدع لم يعرفه سلف هذه الأمة، ولا صدرها الصالح. وما كان من جنس البدع والأمور المحدثة ؛ فإنه لا يكون وسيلة تعطى بها الرغائب، وتقضى بها الحاجات.

٦ ـ سؤال الله تعالى بحق فلان:

كما ليس من التوسل المشروع بل هو من الممنوع: سؤال الله تعالى بحق فلان، أو فلان ؛ إذ هذا التوسل لم يرد فى الكتاب الذى قال تعالى فيه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:38).

ولم يرد فى سنة النبى ﷺ الصحيحة التى قال أبو هريرة فيها: «علمنا رسول اللّه ﷺ كل شىء حتى الخراءة»[1] فهو إذاً من التوسلات المحدثة الباطلة التى نهى عنها سلف هذه الأمة، وكرهوها للمسلمين فقد نقل عن أبى حنيفة أو أحد تلامذته رحمهم اللّه تعالى الإنكار الشديد على من سأل اللّه تعالى بحق فلان، إذ لا حق لأحد على اللّه تعالى فيسأل به، وإنما اللّه ذو فضل فيُسأل من فضله كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء:32).

إنه بدل أن يسأل المسلم ربه بسؤال بدعى منهى عنه لا يعطى به فليسأله بسؤال شرعى مأذون فيه ؛ يستجاب له به، ويعطى مسألته، وهو أن يقول: «اللهم إنى أسألك بإيمانى بك أو بنبيك، أو بكتابك أو بمحبتى لك أو لفلان نبيك أو عبدك أن تقضى حاجتى، أو تفرج كربى، أو تخلصنى من محنى ...» أو يقول: «اللهم أسألك وأتوجه إليك بمحبتى، واتباعى لنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ وأن تكشف ضرى، أو تقضى حاجتى، أو تعطينى كذا أو كذا»، فإن هذا من التوسل المشروع الذى يعطى به الداعى ويستجاب له إذا توسل به، وكان أهلاً للإجابة بإيمانه وإسلامه، وهو مغن للمؤمن عن التوسل بما لم يشرع فى كتاب ولا سنة.

(تنبيه هام)

يحسن بنا هنا أن ننبه إلى ثلاث شبه قد تعرض للمسلم عند الكلام على التوسل والوسيلة، وهى:

1 ـ حديث الضرير، ونصه كما رواه الترمذى وأحمد وغيرهما بسند لا بأس به: أَنَّ رَجُلاً ضَرِير البَصَر أتى النبىَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللّه أَنْ يُعَافينى. قَالَ: «**إن شئت دعوت لك، وإن شئت صبرت فهو خير لك**» فقال: ادعهُ. فأمره أن يتوضأ، فيحسن الوضوء، فيصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه فتقضى لى، اللهم شفعه فىّ**» قال: ففعل الرجل فبرأ»[2]. ووجه الشبهة فى الحديث: أن يقول المرء: ما دام الضرير قد علمه الرسول ﷺ أن يقول: اللهم إنى أسألك، وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة .. إلخ، فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجى ؟

والجواب: أن نقول: إن هذا التوسل مركب من عدة أمور ولا يتم إلا بها، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاة الرسول ﷺ ألا وهو دعاء الرسول ﷺ لأحدنا اليوم، وشفاعته لنا عند اللّه تعالى فى قضاء حاجتنا، وذلك لوفاته ﷺ والتحاقه بالرفيق الأعلى. فلو قام أحدنا

(1) روى مسلم -رحمه الله- عن سلمان قال: «قيل له: علمكم نبيكم ﷺ كل شىء حتى الخراءة؟ قال: فقال: أجل..» (1/ 154).

(2) أحمد (4/ 138)، وغيره.

اليوم يقول: يا رسول اللّه ادع اللّه لى أن يقضى حاجتى، لكان قوله باطلاً وضلالاً. ولا معنى لَه، إذ الرسول ﷺ لا يسمعه ولا يراه. ولا يدعو اللّه تعالى له أبداً، ولو قال أحدنا اليوم: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك .. إلخ لكان كاذباً فى قوله ؛ لأنه لم يقدم بين يدى دعائه الرسول ﷺ يدعو له، حتى يقول لله تعالى: اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك، اللهم شفعه فىَّ، إنما يقول هذا من قام الرسول ﷺ يدعو اللّه تعالى له كما دعا للضرير.

ومن هنا لم يبق هذا التوسُّل بتلك الكيفية جائزاً ولا نافعاً لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره وهو دعاء الرسول ﷺ للمتوسل. وعلى فرض أن مؤمناً قام فتوسل به، وبرأ من مرضه، أو قُضيت له حاجته ؛ فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته ؛ إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر. كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتاً، ويتشفع به فتقضى حاجته، ويقول: سيدى فلان قضى حاجتى، والحقيقة أن وسيلته شرك محرم، وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط، لا أن السيد دعا له وأن اللّه تعالى قد استجاب له.

وهذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى اللّه تعالى وهو أن يتوضأ فيُحسن الوضوء، ويصلى ركعتين، ويقول: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيمانى وحبى لنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ أن تقضى حاجتى، ويسمى حاجته ؛ فإنه يرجى أن يستجيب اللّه تعالى له، ويقضى حاجته.

ومن باب التحدث بنعمة اللّه تعالى أقول: إنه صادف يوم تبييض هذه الرسالة ووصولى فيها إلى هذا الموضوع من مواضيعها: أن كنت بالدار البيضاء من المغرب وفى آخر رمضان ورغبت فى عمرة فيه، وحاولت أن أحجز مقعداً بالطائرة فقيل لى إنه غير ممكن. وإذا تأخرت عن هذه الرحلة ينتهى رمضان ولم أعتمر فيه كما كنت أعتزم وآمل، فتوضأت وصليت ركعتين وقلت: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيمانى بنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ، وحبى له، أن تيسر لى أمر سفرى على الطائرة الفلانية يوم كذا لأعتمر عمرة مبرورة فى رمضان هذا.

وعدت إلى مكتب الشركة فواللّه ما رُمت مكانى حتى قُضيت حاجتى، وتم حجزى والحمد لله رب العالمين، ونفعنى اللّه تعالى بهذه الوسيلة المشروعة.

2 ـ حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما، ونصه كما فى البخارى: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»(1).

(1) البخارى (2/ 32، 33).

ووجه الشبهة فى هذا الحديث. أن يقال: ما دام عمر رضي الله عنه قد قال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا»، وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبى ﷺ.

فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبى ﷺ؟

والجواب عن هذه الشبهة: أن نقول: إن توسلهم رضوان الله عليهم بالنبى ﷺ كان بطلبهم منه أن يدعوَ الله تعالى لهم بالغيث فيدعو فيستجيب الله دعوته ويسقيهم كما قد حصل مراراً. لا أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بذات النبى، أو بجاهه ﷺ فيقولون: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك، أو بجاه نبيك، أو بجاه نبيك، والنبى غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم؛ إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس رضي الله عنه. وإنما كان يقول: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك، أو بجاه نبيك فاسقنا، لم يقل عمر هذا لأنه يعلم أن التوسل بالنبى ﷺ كان بدعائه عليه الصلاة والسلام لهم، ولما توفى ﷺ لم يبق ليدعو لهم، توسلوا بالعباس ليدعو الله تعالى لهم فكان يدعو، ويستجيب الله له فيسقون.

ومن هنا كان من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمناً صالحاً يدعو لهم عند الحاجات، ولكن من غير الجائز أن يقدموا ميتاً أو غائباً لربهم ويقولوا: اللهم إنا نتوسل إليك بفلان أو بجاه فلان؛ لأن هذا كذب وباطل، ما دام الذى قدموه وسيلة لربهم غائباً أو ميتاً؛ لأن الغائب أو الميت لا يعرف عن حالهم، ولا يسمع طلبَهم منه الدعاء، ولا هو يدعو لهم، وإذا لم يدع لهم فبم تكون الاستجابة؟؟؟

3 ـ ما ورد فى لفظ: «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك»[1].

ووجه الشبهة أن يقال: إن النبى ﷺ قال: «إنى أسألك بحق السائلين عليك» فلم لا نتوسل نحن بمثل ذلك، ونقول: اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان؟؟

والجواب: أن نقول: إن الحديث الذى ورد فيه هذا اللفظ حديث ضعيف، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام، فضلاً عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه. مع أن هذا اللفظ لو صح عن النبى ﷺ، ما دل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان؛ لأن معنى بحق السائلين عليك: اللهم استجب كما تستجيب للداعين، لأنك قلت ادعونى أستجب لكم، وذلك لأنه ما دام تعالى قد أمر عباده بدعائه، وواعدهم بالاستجابة فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:60).

أصبح لكل داع حق أن يطلب ربَّه بما وعده به لينجزه له، فمن هنا لما دعا الرسول ﷺ عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزاً ربه وعده: «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق

---

(1) رواه أحمد (3/ 21)، وابن ماجه (مساجد / 14).

ممشاى هذا». فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية وهى الإجابة للداعين والمثوبة للعاملين بطاعته، الماشين إلى بيوته لأداء عبادته.

قلنا: هذا من باب التنزل والفرض، وإلا فما دام الحديث ضعيفاً فإنه لا يلتفت إليه، ولا إلى من يحتج به، شأنه شأن حديث قول آدم فى الجنة لما اقترف الخطيئة: «يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى ...» إلخ.

وحديث فاطمة بنت أسد أم على رضي الله عنهما، أن الرسول ﷺ قال بعد أن اضطجع فى قبرها: «اللّه الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك، والأنبياء الذين قبلى فإنك أرحم الراحمين». فإن هذه الأحاديث قد حكم أهل الحديث بضعفها وبطلانها فلا يلتفت إليها، ولا يعول عليها أو يحتج بها. وفيما صح عن نبينا ﷺ من التوسلات المشروعة كفاية. فلنأخذ ما صفا، ولنترك ما كدر.

الاستشفاع

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم فى أمور عظيمة من الباطل: معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة. فترى أحدهم يدعو غير اللّه تعالى، ويستغيث بغيره عز وجل، ولا يحسب هذا دعاء لغير اللّه، ولا يعده شركاً فى عبادته سبحانه وتعالى. وإذا قيل له فى ذلك، وأنكر عليه قال: هذا ليس بدعاء لغير اللّه، ولا شرك فى عبادته، وإنما هو استشفاع وتشفع فقط.

ومن هنا رأينا بحث هذه المسألة، وبيان الحق فيها تعليماً وتحذيراً.

معنى الاستشفاع:

الاستشفاع والتشفع والشفاعة هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد، ومعناها لا يختلف وهو: أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذى مُلك أو سلطان ليقضى له حاجته فى إعطائه ما هو فى حاجة إليه، أو فى التجاوز عنه فى ذنب قارفه، أو جريمة ارتكبها، والكلمات الثلاث مشتقة من لفظ الشفع الذى هو خلاف الوتر ـ الفرد ـ وبيان ذلك: أن صاحب الحاجة كان واحداً فضم إليه الواسطة. وهو من استشفع به، وطلب شفاعته فكان معه شفعاً أى اثنين بعد أن كان فرداً. من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة.

حكم الاستشفاع:

لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذى منصب أو مال، أو سلطان ليشفع له عنده برفع حاجته إليه حيث عجز هو عن رفعها إليه، لخموله أو قصوره وذلك لقول اللّه تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً

حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا[1] وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا[2]﴾ (النساء:85).

ويؤجر الشافع على شفاعته، ولو لم تقض حاجة من شفع له، وذلك لقول النبى ﷺ فى حديث أبى موسى: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء**»[3].

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون فى حق ضاع، أو حق يخشى ضياعه، أو فى شىء مباح ينتفع به، أما أن يكون فى إثم بإسقاط حق من الحقوق، أو تعطيل حد من الحدود فلا، وذلك لقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (المائدة:2).

ولقول الرسول ﷺ: «**إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع**»[4]

قياس خاطئ:

وجهل كثير من المسلمين ربهم عز وجل فلم يعرفوه، فقاسوه سبحانه وتعالى على بعض عباده فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى، فكانوا يقولون: يا سيدى فلاناً اشفع لى عند ربى فى قضاء كذا وكذا ... ويا مولاى فلاناً توسلت بك إلى ربى، فادع الله لى يفعل بى كذا وكذا. ولما يُنكر عليهم ذلك يقولون: إن الذى لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة !!

فجمعوا بذلك بين عظيمتين: الأولى دعاء غير الله تعالى وهو شرك أكبر، والثانية: قياس الخالق على المخلوق، وتشبيهه به حيث طلبوا له واسطة كما تُطلب للمخلوق من ذوى السلطان، وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به، وينبهه إليه، بخلاف الرب تبارك وتعالى فإنه عليم بأحوال عباده، لا يخفى عليه من أمرهم شىء، فما هو فى حاجة إلى من يعلمه بأحوال عباده، أو ينبهه إليها، وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة يشفع له برفع حاجته إلى من يقضيها له، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى يختلف تمام الاختلاف ؛ إذ العبد مع الله تعالى

---

(1) الكفل هنا: الوزر المترتب على الشفاعة السيئة. (2) حفيظاً شاهداً أو حسيباً قديراً.

(3) رواه الشيخان، اللؤلؤ والمرجان (3/ 202، 203)، والبخارى (2/ 134)، ومسلم (8/ 37).

(4) التغليظ فى الشفاعة فى الحدود ثابت فى البخارى (8/ 199)، والحديث المذكور ذكره مالك عن ابن الزبير موقوفاً بلفظ: «إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع» الموطأ (3/ 49، 50)، وهذا فى حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأى.

يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة وبدون واسطة، لعلمه تعالى بأحوال عباده وقربه منهم بخلاف المخلوقين فإنهم لجهلهم بأحوال الناس، وعجزهم عن كفايتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجته إليهم، ليعلموها، وتؤثر عليهم ليقضوها، وهذا المعنى منتف مع اللّه تعالى تماماً. ومن هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه. وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة، وكيف وربه تعالى يقول: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ (البقرة:186). ويقول: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ (غافر:60).

وإن قيل: كيف جاز لنا إذاً أن يقول بعضنا لبعض: يا فلان ادع اللّه تعالى لى بكذا ؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء ؟؟

قلنا: إن هذا ليس من ذاك أبداً، وذلك لأمرين:

أولهما: أن هذا قد أذن لنا الشارع فيه ؛ إذ ثبت بما لا مجال للشك فيه أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يطلبون منه ﷺ أن يدعو اللّه تعالى لهم. كما ثبت أن الرسول نفسه قد طلب مرة من عمر وهو ذاهب إلى العمرة أن يدعو اللّه تعالى له فقال: «لا تنسنا يا أخى من دعائك»[1]، وبه أصبح المسلمون لا يترددون فى أن يطلب أحدهم من أخيه أن يدعو اللّه تعالى له بخير. وكيف وقد أرشدنا إلى ذلك القرآن فى قوله: ﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ** ﴾ (الحشر:10).

إذ فى القرآن دعاء المؤمنين بعضهم لبعض.

وثانيهما: طلبنا الدعاء من عبد صالح حيٍّ يسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو اللّه تعالى لنا هو كطلبنا منه أن يناولنا شيئاً، أو يعطينا آخر، بأن يقدم لنا طعاماً أو شراباً، أو يعطينا مالاً أو متاعاً، أو يعيننا على ما يشق فعله علينا، أفليس هذا جائزاً ؟ بلى وقطعاً، وبدون شك. وإذاً فأى مانع من أن نقول لمؤمن صالح حى يصوم، ويصلى ويسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو اللّه لنا، أى مانع أن نقول له: ادع اللّه تعالى لنا يا فلان بكذا، أو اسأل اللّه تعالى لنا كذا وكذا ... رجاء أن يستجيب اللّه تعالى له فينا فتقضى حوائجنا، أو نحصل على خير من خيرى الدنيا أو الآخرة.

وهذا بخلاف الاستشفاع بأموات المسلمين من أولياء وصالحين ؛ إذ هم أموات ،والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه، ولا يعرف من يستشفع به، فنداؤه وطلب الدعاء منه، والاستشفاع به ضلال عقلى وخطأ فكرى، وفساد دينى، يبرأ منه الإسلام وأهله، وهذه أقل أحواله وإلا فهو شرك فى عبادة اللّه، وفاعله من المشركين باللّه. والعياذ به تعالى من الشرك والمشركين.

---

(1) رواه أبو داود (1/ 344)، والترمذى (دعوات/ 1).

الشفاعة فى الآخرة

ما تقدم من أحكام الشفاعة، والاستشفاع إنما كان فى الشفاعة، والاستشفاع اللذين يتمان فى هذه الحياة الدنيا. أما الشفاعة فى الدار الآخرة فإنها تختلف -عنها فى الدنيا اختلافاً كبيراً- وذلك؛ لأن الأمر يومئذ كله لله، وليس لأحد غير اللّه تعالى منه شيء كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ (الانفطار:17-19).

وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجرى على خلاف ما تكون عليه اليوم فى الدنيا، وهذا بيانها:

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة إلى قسمين: شفاعة منفية تماماً لا حقيقة لها، ولا واقع، ولا وجود، وشفاعة ثابتة واقعة، لها حقيقة ووجود.

وللشفاعة المنفية صور منها:

1 ـ شفاعة الآلهة التى عُبدت من دون اللّه أو معه: فهذه شفاعة لا وجود لها البتة، وسواء كان المعبود المرجو الشفاعة ملكاً، أو نبياً، أو صالحاً، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين، أو الحيوانات والجمادات، وذلك لقول اللّه تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: 43، 44).

ولأن من عبد غير اللّه تعالى مشرك كافر، ولا شفاعة لكافر لقول اللّه تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر:48). وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: 48).

وهذه قطعاً نفس الكافرين والمشركين.

2 ـ الشفاعة بدون إذن اللّه تعالى للشافع، أو عدم رضاه عن المشفوع له وذلك لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:255). وقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء:28). وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم:26).

والشفاعة المثبتة قسمان:

القسم الأول: شفاعات النبى محمد ﷺ.

والقسم الثانى: شفاعات غيره من الأنبياء، والأولياء، والصالحين من عباد اللّه تعالى.

فأما شفاعاته ﷺ فهى كثيرة، منها: الشفاعة العظمى، وهى الشفاعة فى فصل القضاء، وهى

المقام المحمود الذى ذُكر له فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: 79).

وورد بيان كيفية هذه الشفاعة فى الصحيحين: فروى البخارى ومسلم -واللفظ لمسلم- عن أبى هريرة قوله: أُتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس منها نَهسة[1] فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بمَ ذلك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد، فيسمعهم الداعى، وينفذ فيهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون، ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لى دعوة فدعوت بها على قومى، نفسى نفسى اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبى الله تعالى، وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى .. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله تعالى برسالاته، وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى نفسى، اذهبوا إلى عيسى .. فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمت الناس فى المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

(1) نهس أى أكل منها بمقدم أسنانه.

فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً، نفسى نفسى، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتونى، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتى تحتَ العرش فأقع ساجداً لربى ثم يفتح الله تعالى علىّ، ويلهمنى من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى، ثم قال: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسى فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبُصرى».(1)

ومن شفاعاته ﷺ: شفاعته فى أناس من أمته فيدخلون الجنة بغير حساب، وقد تقدم دليلها آنفاً فى حديث الشفاعة العظمى، حيث قال له الرب تعالى: «**أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن**»، ومنها: شفاعته ﷺ فى أناس من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم فلا يدخلون النار، ومنها: شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمته فيخرج منها بشفاعته ﷺ لحديث الصحيحين -واللفظ لمسلم- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبى دعوة مستجابة فتعجَّل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً**»(2).

والقسم الثانى: من الشفاعة المثبتة شفاعة الملائكة، والأنبياء، والعلماء، والشهداء: فشفاعة الملائكة ثابتة بقوله تعالى: ﴿**وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ**﴾ (النجم:26).

وبقوله تعالى: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ (الأنبياء:28).

وأما شفاعة الأنبياء، والعلماء، والشهداء فهى ثابتة بعموم القرآن وخصوص السنة، ففى القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ (المدثر:48). ويقول وقوله الحق: ﴿**لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ (مريم:87). ويقول: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ (البقرة:255)، فهذه الآيات دالة على وجود شفعاء بمنطوقها ومفهومها.

---

(1) اللؤلؤ والمرجان (1/ 49-51)، والبخارى (6/ 105-107)، ومسلم (1/ 127-129).

(2) اللؤلؤ والمرجان (1/ 51)، والبخارى (9/ 170)، ومسلم (1/ 131).

وفى السنة يقول الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجه والبيهقى والبزار: «**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**» وإسناده حسن(1).

وقوله ﷺ «**يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته**»(2)، وصح أن القرآن الكريم يشفع لأهله كذلك(3).

وآخر القول فى هذا أن كل ما تقدم من الشفاعات الثابتة للأنبياء والعلماء، والشهداء هو مقيد بثلاثة قيود فلا تتم الشفاعة لعبد من عباد الله تعالى إلا بعد توفرها له، وتلك القيود هى:

1 ـ أن لا يشفع أحد إلا بعد إذن الرب تبارك وتعالى له. وذلك لقوله: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ والاستفهام هنا للنفى أى لا أحد يشفع إلا بإذنه تعالى.

2 ـ أن لا يشفع أحد فى آخر إلا إذا كان الله تعالى قد رضى عن المشفوع فيه بارتضائه قوله وعمله. وذلك لقوله عز وجل: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ (الأنبياء:28)، فإنه صريح فى نفى الشفاعة عن أحد لم يرتضه تعالى لذلك.

3 ـ أن لا يشفع أحد فيمن مات على الشرك والكفر، وذلك لحكم الله تعالى بخلود الكافرين والمشركين فى النار بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾ (البينة:6).

ولهذا وجب أن ينقطع طمع العبد فى غير الله تعالى: فلا يطلب الشفاعة من أحد، ولا يسألها من غير الله عز وجل ؛ إذ الشفاعات كلها لله تعالى وليس لأحد سواه منها شىء، قال تعالى: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً**﴾ (الزمر:44). وقال: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ (البقرة:255).

ومن أراد شفاعة النبى ﷺ فليسألها من الله تعالى، وليقل: اللهم شفع فىَّ نبيك، أو اللهم ارزقنى شفاعة نبيك، أو يا رب اجعلنى ممن تُشفع فيهم نبيك، وليتبع سؤاله الشفاعة من الله تعالى بالعمل الموجب لها، والمقتضى تحقيقها، وهو يتلخص فى ثلاثة أمور:

1 ـ الإخلاص لله تعالى فى العبادة، ونفى الشرك عنه تعالى فى ربوبيته وأسمائه، وصفاته، وفى عبادته، لحديث الصحيح: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ فقال: «**من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو من نفسه**»(4).

---

(1) ابن ماجه (زهد / 37). (2) رواه أبو داود (2/ 17).

(3) لما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»... الحديث - متن مسلم (2/ 197).

(4) البخارى (1/ 35).

2 ـ كثرة الصلاة، لما صح عنه ﷺ: أنه سأله أحد أصحابه مرافقته فى الجنة فقال له: «**فأعنى على نفسك بكثرة السجود**». (1)

3 ـ الصلاة على النبى ﷺ، وسؤال الوسيلة له، وذلك لحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلّى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها منزلة فى الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت له الشفاعة**»(2).

التبرك

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها سىء فهمها، وجهلُ الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين فى أخطاء كبيرة أضرت بالمعتقد الإسلامى، وأساء إلى الحياة الإسلامية أيما إساءة.

فباسم التبرك، وتحت شعاره عُبدت الأشجار والأحجار، وانتهكت الحرمات، وضيعت الفرائض، وأسقطت الواجبات. كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى، واستغيث بغيره عز وجل.

وبالجملة فإن ما وقع من الشرك فى هذه الأمة أيام جهلها بكتاب ربها، وسنة نبيها، وبعدها عنهما إنما كان فى الغالب عن طريق التوسل، والتشفع، والتبرك. ولهذا رأينا أنه مما ينبغى أن يبحث فى هذا المعتقد، ليكون المسلم فيه على علم كامل، وبينة تامة، هذه الثلاثة: التوسل والاستشفاع والتبرك، وقد بحثنا الأول والثانى، وها نحن نبحث الأخير إن شاء الله تعالى، فنقول:

التبرك:

التبرك مصدر تبرك بالشىء يتبرك به تبركاً إذا تيمن به، والتيمن بالشىء هو طلب اليُمن، وهو البركة. والبركة هى النماء فى الخير والزيادة فيه، ويطلق لفظ البركة على كل كثرة فى الخير. واشتقاقها من بروك البعير، وهو استناخته فى موضع، ولزومه فيه. فالخير الدائم الثابت فى الشىء، والنامى فيه هو البركة.

والبركة فى عرف الدين: ما يجعله الله تعالى من الخير فى الشىء الذى يباركه. فقد أخبر تعالى أنه بارك فى أرض الشام أى جعلها مباركة(3) وأخبر أنه جعل كتابه مباركاً(4)، والمعنى

---

(1) مسلم (2/ 52).
(2) مسلم (2/ 4).
(3) فى قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71).
(4) فى قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ (ص: 29).

كثير خيرهما دائم لهما، ثابت فيهما، وأخبر عيسى عليه السلام عند تكلمه فى المهد أن اللّه تعالى جعله مباركاً أينما كان. فقال: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا** ﴾ (مريم:31، 32).

ومن الأدعية المأثورة: «وبارك لى فيما أعطيتنى»، وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعاً ؛ لأنه من طلب الخير والتماسه.

ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنى عن بركة اللّه ؟

ولكن بم يكون التبرك، وكيف يكون ؟

أما بم يكون التبرك ؟

فإن التبرك يكون بما عُلم شرعاً أن فيه بركة، وأذن الشارع فى طلبها منه. والتماسها فيه، وذلك كبيت اللّه الحرام، وماء زمزم الذى قال فيه الرسول ﷺ: «**ماء زمزم طعام طعم، وشفاء سقم**»(1).

وكالمساجد الثلاثة التى لا يشد الرحال إلا لها، وككل المساجد التى بنيت باسم اللّه، وتقام فيها عبادة اللّه من صلاة وغيرها، وكالأراضى المقدسة من الحجاز والشام، وكمجالس العلم والذكر، وقراءة القرآن، ومجالسة الصالحين، ومرافقتهم فى أسفارهم، وطلب دعائهم.

وأما كيف يكون التبرك ؟

فإنه يكون إن كان ببيت اللّه تعالى فبزيارته للحج والعمرة، وبالطواف به واستلام ركنيه، والدعاء عنده، والجلوس حوله، وإن كان بزمزم فبالشرب منه، والدعاء عند ذلك، وإن كان بالمساجد الثلاثة فبالسفر إليها للصلاة فيها، والاعتكاف بها، وإن كان بسائر المساجد فبالصلاة فيها، والعبادة بها من ذكر وتسبيح، وقراءة قرآن وطلب علم، وإن كان بالأراضى المقدسة فبالإقامة بها على حسن سيرة، وكمال أدب، والحياة فيها، والموت بها والدفن فيها، وإن كان بمجالسة الصالحين من أهل العلم، والإيمان، والتقوى فبأخذ العلم عنهم، وسماع نصائحهم، والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم، والرغبة فى الحصول على دعائهم.

هذا، وبعد أن بينا ما يشرع التبرك به، وكيف يتم التبرك به وجب أن نبين إتماماً للبحث حقائق هامة لابد من بيانها فى هذا البحث وهى:

1 ـ أن التبرك لم يعدُ كونه مشروعاً، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحباً لا غير.

---

(1) روى مسلم «إنها مباركة، إنها طعام طعم» فى حديث فضائل أبى ذر (7/ 152-154)، والزيادة (شفاء سقم) لغيره.

2 ـ إن كان التبرك وهو طلب بركة ما قد يؤدى إلى فعل مكروه، أو ارتكاب محرم فإنه يجب تركه، ويتعين عدم فعله ؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، ويشهد لهذا فعل عمر رضي الله عنه، وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعاً باتباع سنتهم، فإنه رضي الله عنه لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية فى طريقهم إلى مكة فى النزول تحت شجرة بيعة الرضوان للتبرك بها، أمر بقطعها، حسماً لمادة الفساد ؛ إذ لو تركت لعُبدت كما عبد غيرها من أشجار كثيرة باسم التبرك، وفى كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى ساعتنا هذه.

3 ـ إن ما يفعله جهال المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارة قبر فلان وفلان، أو ضريح فلان من سيِّد أو صالح، وإقامة الحفلات حولها، والنزول بساحتها، والعكوف والإقامة الليلة والليلتين عندها باسم التبرك، كل هذا باطل منهى عنه، ولم يشرع فعله للمسلمين، وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع، وقد أدى إلى الشرك والعياذ بالله، فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة، وكم ترى حولها من مستجير بها، وداع ضارع لها، وباك خاشع لها، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها، وتذبح قرباناً لها، كل ذلك تحت شعار التبرك، وعنوان التوسل والتشفع، ألا فلا تبرك، ولا توسل، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدى إلى الشرك والكفر.

4 ـ إن العبد الصالح الذى تقدم أنه يجوز التبرك بزيارته للانتفاع به، وبإرشاده، وتوجيهه، ونصائحه، وبالتالى بدعائه، هذا العبد الصالح ينبغى أن يكون من أهل العلم، والإيمان، والتقوى، وإلا فلا تُشرع زيارته، ولا التبرك به لعدم وجود البركة فى غير أهل العلم، والإيمان، والتقوى.

5 ـ إذا كان الرجل يدعى الولاية، ويدعو الناس إلى الاعتراف له بها، ويستغل ذلك لفائدته الشخصية من جلب منافع خاصة، من جاه، أو مال، أو ما إلى ذلك من الحظوظ النفسية والدنيوية، فإن مثل هذا الرجل دجال لا بركة عنده، ولا خير فيه، فلا تحل زيارته، ولا مجالسته، ولا احترامه فضلاً عن التبرك به، وذلك لفقد موجبات البركة عنده وهى العلم، والإيمان والتقوى.

الولاية والكرامة

إن مما له صلة وثيقة ببحث عقيدة المؤمن موضوع الولاية والكرامة. إذ الولاية ولايتان، ولاية للرحمن، وولاية للشيطان، والكرامة منها ما هو كرامة بحق ؟ يكرم الله تعالى بها أولياءه من صالحى عباده، ومنها ما هو فتنة واستدراج للعذاب والامتهان. وعدم التمييز بين كرامة المؤمن، ومهانة الشيطان، يوقع فى أخطاء قد تؤدى بكثير من المؤمنين إلى اعتقاد الباطل، والعمل به.

ومن هنا كان لابد من بحث هذه المسألة وبيان وجه الحق والصواب فيها؛ وليكون المؤمن

على بصيرة كاملة فى مُعتقده الذى هو قوام حياته الدينية بل هو رأس ماله الذى تتوقف عليه سعادته فى الدنيا والآخرة معاً.

ولنبدأ بحث هذه المسألة بالسؤال التالى:

ما هى الولاية ؟

الولاية فى عرف اللغة مصدر ولى الشىء يليه وَلياً وولاية[1] إذا دنا منه وقرب أو أقام به، وملك أمره، أو نصره وأحبه ـ ويصاغ من فعل ولى المفاعلة فيقال: والاه يواليه موالاة إذا صادقه وناصره فهو موال له ضد مُعاد له. كما يصاغ التولية فيقال: تولاه تولية إذا صار له وليّا. ومنه اشتق لفظ الولى الذى هو ضد العدو.

هذا معنى الولاية فى عرف اللغة، وهو لا يختلف عنه كثيراً فى الدين، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب، والنصرة، والقيام بالأمر لصالح الولى، وضد الولاية العداوة، وهى تدور على البعد، والبغض، وإرادة الشر والهلاك للشخص المعادى، على عكس الولاية. وبناء على هذا فولاية اللّه تعالى للعبد: أن يَهديه إلى الإيمان به، وإلى معرفته، وطاعته ومحبته، ونصرة دينه، فيعمل العبد بذلك، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه، فإذا أحبه قربه، وتولى أموره، ونصره، وحفظه، فكان بذلك وليه. كما قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ (البقرة:257).

وولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به، ويتقيه، ويتقرب إليه بطاعته، ويوافقه فى محابه. ومكارهه، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، وينصر دينه وأولياءه، وبذلك يكون وليّاً لله تعالى، قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (يونس:62-64).

الحال الجامعة:

وتكون الحال الجامعة بين اللّه تعالى الوليِّ الحميد، وبين العبد المؤمن التقى هى الموافقة فى الحب والبغض، والقرب[2] والمناصرة والموالاة، والمعاداة.

---

(1) قال فى مختار الصحيح: وليه يليه بالكسر فيهما وهو شاذ.

(2) يشهد لهذا حديث الصحيحين القدسى: «**وإن تقرب إلىَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً**» الحديث. اللؤلؤ والمرجان (3/ 223)، والبخارى (9/ 147، 148)، ومسلم (8/ 67، 68).

ومن هذا يُستخلص أصل الولاية وشرطها، فأصلها الإيمان والتقوى، وشرطها الموافقة التامة فى الحب والبغض، والموالاة والمعاداة ومتابعة الرسول ﷺ فى كل ما جاء به، ودعا إليه من أصول العقائد، والعبادات، والآداب، والأخلاق، متابعة يتجرَّد فيها العبد لله، ويخلص له فيها ؛ إذ لا تتم محبة اللّه للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ، وذلك لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: 31).

وهذا لأن المتابعة هى سبيل طهارة الروح، وزكاة النفس، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح، مع البعد عن الشرك، والمعاصى كان أهلاً لحب اللّه تعالى، وموالاته عز وجل.

الفرق بين الولايتين

إن هناك فرقاً بين ولاية اللّه تعالى للعبد، وبين ولاية العبد للّه عز وجل تجب ملاحظته، وهو أن اللّه تعالى لا يوالى عن افتقار للعبد، واحتياج إليه، وإنما يوالى إكراماً للعبد، وإنعاماً عليه، لغناه تعالى عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى، وهذا من معانى اسمه (الصمد)، وقد نفى اللّه تعالى فى كتابه العزيز من سورة الإسراء، نفى أن يكون ولى من الذل، فقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء: 111).

وأما العبد فإنه يوالى ـ إن وفقه اللّه تعالى ـ يوالى لفقره وحاجته إلى ربه ؛ إذ هو دائماً فى حاجة إلى نصرة ربه ومعونته، ومحبته، ورضاه، وإدنائه منه، وتقريبه إليه ؛ إذ لا يسعد العبد إلا فى جوار مولاه، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلاً من رضوانه. فالمنة إذاً للّه تعالى على موالاته لعبده وقبوله له ولياً، وأما العبد فلا منة له بحال، وليس له أن يُدلَّ على اللّه تعالى. ولو أذاب نفسه فى طاعة اللّه، وأوقف كل حياته عليه، وحتى لم يبق له هم ولا هوى سوى اللّه عز وجل.

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى، فليعلم فإنه مهم وجدير بالفهم والمعرفة.

الولى

إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا ـ إن شاء اللّه ـ معرفة لفظ الولى، إن لفظ الولى وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولى غيره، المولى له، ويكون اسم مفعول بمعنى الذى يواليه غيره ويتولاه. فاللّه تبارك وتعالى وهو الولى الحميد، ولى عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان، ووفقه للطاعة، وأدناه منه، وقربه إليه، وأحبه، ونصره فهو مولاه ووليه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الأعراف: 196).

والمؤمن ولى اللّه تعالى بمعنى أن اللّه تعالى هداه وتولاه، وبمعنى أن المؤمن والى اللّه تعالى فآمن به واتقاه وأحبه، وأطاعه، ووافقه فى محابه ومساخطه، فوالى من يوالى، وعادى من يعادى. وأحب ما أحب ومن أحب، وكره ما كره ومن كره، فكان بذلك عبده ووليه قال تعالى فى إثبات هذه الولاية وذكر كرامتها: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (يونس:62-64).

وقد تقدم هذا المعنى واضحاً فى بحث الولاية فازداد وضوحاً وتقريراً، وبالجملة فإن ولى اللّه تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه اللّه تعالى بهدايته فآمن به واتقاه. وتقرب إليه بالصالحات ووافقه فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات، ووالى من يوالى، وعادى من يعادى، فوالاه اللّه تعالى لذلك، وتولاه، وأكرمه بكرامات، فكان إذا دعاه استجاب له، وإن استعاذه أعاذه، وإن سأله أعطاه.

(الكرامة)

ما هى الكرامة:

الكرامة: الاسم من كَرُم، والجمع كرامات، وهى ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات، وهى عامة وخاصة. فالعامة: هى ما كرَّم اللّه به بنى آدم، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية، ومن ذلك اعتدال القامة، والخلق فى أحسن تقويم، والعقل، والمنطق، وتدبير المعاش وإصلاحه، وتسخير الكون لهم، والانتفاع به إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء:70).

والخاصة وهى أفضلهما: ما يكرم اللّه تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات، وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون فى قول الله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة:27). وفى قوله: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة:90-91). وهم المقتصدون المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (فاطر:32). وهم المبشرون بالجنة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأحقاف:13-14).

وأخصُّ من هذه الكرامة كرامة الإيمان والاستقامة، ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى، من الورع والتقليل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة، وصدقات، ورباط وجهاد، وصيام، وحج. وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة:10ـ 14). وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر:32ـ 33).

وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخاري: «**من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه**»(1).

فهؤلاء في أعلى مرتبة من مراتب الولاية، إذ يعرفون باستقامتهم، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبون، فلو سألوه زوال جبل لزال، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل، وشفاء العليل، وكإكساب المعدوم، والإنقاذ من الهلاك المحتوم.

مراتب الأولياء

وبناء على ما سبق فإن للأولياء أربع مراتب: عليا وعالية، ودنيا ووسطى.

فالعليا: هي مرتبة الأنبياء والمرسلين، وكراماتهم يصرفونها لله تعالى الذي منَّ بها عليهم فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس.

والعالية: وهي مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم في تسامي الدرجات، وعلو المنازل.

والوسطى: وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين.

---

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع (8/ 131)، إلا أنه ليس فيه (ولابد له منه).

والدنيا: وهى مرتبة أهل الضعف فى الإيمان والتقوى، وهم الظالمون لأنفسهم، المذكورون فى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر: 32-35).

والشاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من الناس، وهم: الظالمون لأنفسهم، والمقتصدون، والسابقون بالخيرات، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، فدل ذلك على أن أهل الضعف فى الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات أو بفعل بعض المحرمات، غير أن درجتهم دون درجة السابقين، ولم تصل إلى درجة المقتصدين، فهم فى منزلة دون، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم. (1)

ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافها، متفاوتون فى العدد قلة وكثرة، فأهل المرتبة العليا أقل عدداً من أهل المرتبة العالية، وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى، وأهل الوسطى أقل عدداً من أهل المرتبة الدنيا، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تنبيه إليه.

تقريرات

الأول: أنه لا تتم ولاية عبد لله تعالى، ولا ينتظم فى سلك أولياء الله تعالى إلا بالإيمان الصحيح، والتقوى القائمة على مبدأ فعل المأمورات، وترك المنهيات.

الثاني: أن الأولياء يتفاوتون فى قربهم من الله تعالى، وعلو منزلتهم عنده وفى كراماتهم بحسب قوة إيمانهم وتقواهم، وكمال موافقتهم لربهم، ونبيهم فيما يحبان ويكرهان.

الثالث: أن الكرامات وهى الأمور الخارقة(2) للعادة التى يظهرها الله تعالى على يد بعض

---

(1) لعل قائلاً يقول: ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم؟ فنقول: إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له، ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة.

(2) هذا النوع الذى يطلقونه على الكرامة، ويقولون: إنه أمر خارق للعادة غير مقترن بالتحدى ودعوى النبوة.

أوليائه، ليست شرطاً فى ثبوت الولاية، ولا فى نفيها ولما كانت تنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه، لأنها بمثابة تعجل الجزاء على الإيمان، والتقوى فى الدنيا، كان بعض الأولياء يتوبون منها إلى الله تعالى، ويستغفرونه لأجلها.

الرابع: الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم، فقد يُخطئون ويغلطون، غير أن الغالب فى أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية، ويخل بمقامها، وإن وقع أن أحدثوا ذنباً لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها، فيسلم بذلك مقامهم من التداعى والسقوط، ومنزلتهم من النزول والهبوط.

الخامس: لنا بحسب ما يظهر لنا من أحوال الناس أن نصف كل مؤمن تقى بالولاية، فنقول: فلان ولىٌّ من أولياء الله تعالى أو نقول: فلان ولىٌّ، ونكرمه لذلك، ونتحاشى أذيته لحديث أبى هريرة فى البخارى عن النبى ﷺ عن الله تعالى: «**من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ... الحديث**»(1)، ولا التفات إلى قول من يقول بعدم جواز ذلك لعدم الدليل على صحة الدعوى.

السادس: جهلُ المسلمين بحقيقة الولاية وبمعرفة الولى جعلهم لا يعترفون بولاية المؤمنين الذين يعيشون معهم من أهل الإيمان والتقوى إلا إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات، أو مات وشيد له ضريح، أو بنيت على قبره قبة، حتى إن أحدهم لو طلب منه أن يدل أحداً على ولى من أولياء بلده، لا يدله على مؤمن تقى يعيش بين الناس، وإنما يدله على ميت له ضريح، أو على قبره قبة وإن كان لا يعرف اسمه فضلاً عن حاله أيام حياته فتقبل شهادته فيه، ويصح حكمه عليه.

السابع: لقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه فى قوله: ﴿**قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا**﴾ (الرعد: 16).

فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن يتخذ له ولياً دون ربه عز وجل فيلجأ إليه فى الشدائد، ويستغيث به عند المخاوف، ويستعيذ به من المكاره، أو يعبده ويتوكل عليه، ويوالى فيه ويعادى فيه، إذ هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله، وهو شرك وكفر والعياذ بالله.

---

(1) ذكر بتمامه فى باب الكرامة فليرجع له.

أولياء الشيطان وموالاتهم

إن بين شياطين الإنس والجن موالاة أثبتها القرآن الكريم، كتاب الله رب العالمين، وحسبنا القرآن شاهداً ودليلاً، قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ (الأنعام:128). وقال تعالى من السورة نفسها: ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (الأنعام:112). وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف:30).

والسؤال الآن هو: كيف تتم الموالاة بين الفريقين؟

والجواب: أنها تتم حسب سنة الله تعالى فى اتحاد المتجانسات، وتلافى المتشابهات وانجذاب كل شبه إلى شبهه، ومن هنا كان إذا خبث الإنسان نتيجة توغله فى الشر والفساد بارتكاب الذنوب والآثام المتمثلة فى معاصى الله تعالى ومعاصى رسوله ﷺ أمكنه الاتحاد بشياطين الجن، والتفاعل معهم، وتوليهم وتبادل المنافع معهم، والتعاون على إغواء الإنسان وإفساده، وإيقاعه فى الشرور والمفاسد، وبحكم الولاء الثابت بين كل من شياطين الإنس والجن، فإن شياطين الجن يخدمون إخوانهم وأولياءهم من الإنس، فيطلعونهم على بعض المغيبات التى أمكنهم الاطلاع عليها، ومعرفتها، كما قد يقربون إليهم أشياء بعيدة، أو يحملونهم إلى أماكن أبعد، كما قد يجمعون لهم بين شخصين متباعدين أو متقاطعين، وقد يظهرون لهم أشخاصاً، أو يسمعونهم أصواتاً وبالجملة فقد يظهرون لهم من بعض الخوارق ما يظن معه من لا علم له بهذا الشأن أنه كرامات كالتى يظهرها الله تعالى على أيدى أوليائه كرامة لهم.

* * *